سمية شهيدي

رواية

المَنبُوذونْ

الأرض المفقودة

دار البسمة
للنشر الإلكتروني

المنبوذون الأرض المفقودة ج1

اسم الكتاب: المنبوذون: الأرض المفقودة –الجزء 1–

اسم الكاتبة: سمية شهيدي

نوع العمل: رواية

الرقم الدولي EBIN: 16-1-327-240723

الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني

الطبعة الإلكترونية الأولى: 2024

الطبعة الورقية الأولى: 2018

رقم الإيداع القانوني:2018MO0590

الترقيم الدولي: 978-9954-9807-1-2

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934

داربسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)

Darbassma1@gmail.com

المملكة المغربية

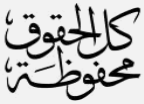

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمّل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأيّ صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيّ طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

المنبوذون

الأرض المفقودة

الجزء الأوَّل

رواية

سمية شهيدي

دار البشمة

بسم الله الرحمن الرحيم

من السماء إلى الماء

في ليلة من ليالي الصيف الهادئة، هناك فوق عرض المحيط المترامي الأطراف، حيث تقبع الأسرار وتختفي الأغوار وتكمن خبايا الماضي والحاضر. تتوقف طائرة هيلوكوبتير لتكسر ذلك الوجوم الطويل بصوتها المرعب على ارتفاع خمسمائة متر من سطح الماء.

لكنَّ وقع دويها المرعب على القلوب، أهون بكثير من وقع منظر ركابها الذين أخذوا بالقفز واحدا تلو الآخر وهم مشفقون، خائفون خوف من يرتمي في أحضان الوغى. بوجوههم المرتعبة وعيونهم الفاترة وقلوبهم المشفقة من هول اللحظات التي يعيشونها، صاروا يتشابهون فيما بينَهم حتى في بروز أعينهم الناظرة نحو سطح الماء.

تتلجلجُ أقدامهم وهي تتحسّس موضعها على الطائرة كي لا يتحول القفز إلى انزلاق لا تحمد عقباه. يرتمون تباعا على غير هدى وسط هذا الظلام الدامس الذي لا يكسره سوى وميض القمر ليلة اكتماله. لا يرى أي منهم موقع وقوعه قبل أن يرتمي في أحضانه، ويكابد من هم على سطح الماء كي يبتعدوا عن أسفل الطائرة تجنبا لارتطام القافزين بهم. يتحسّسون بعضهم البعض ولا يكادون يرون إلا انعكاسا ضئيلا لضوء القمر على ملابسهم البيضاء. بعضهم يختفي في الأعماق بعد سقوطه مباشرة، والبعض الآخر يطفو كجثة هامدة على سطح الماء، والبعض يصارع المياه العميقة كي لا يلقى

نفس المصير. إنها واحدة من بين عشرة طائرات وصلت في منتصف الليل، تُقلّ كلّ منها ما يقارب الخمسة عشر شخصا، يقودهم مسلحون يرفعون بنادقهم على الركاب مهددينهم بالقتل إن أبوا القفز.

كل واجد من هؤلاء المعدمين الذين يصارعون لأجل البقاء يستنشق أكبر كمية من الهواء، خشية أن يكون النفسَ الأخير له في هذا العالم. على سطح الماء هناك من ينازع كي يبقى طافيا لعله يطيل لحظات حياته التي بدت أنها في عدها التنازلي. فأي أمل في الحياة بقي لهم في هذه البقعة النائية المجهولة، وسط المحيط الضخم في غمرة الظلام. أخذت الأفكار السيئة تنساب إلى أذهان بعضهم، فمنهم من يتوجس من وجود أسماك قرش تتربص به. ومنهم من يكابد ليستجمع مهاراته الضئيلة أو المنعدمة في السباحة. وهناك من يدرك أن النّصَب سيستشري في مفاصله عاجلا أم آجلا ويستسلم لقدره المحتوم ويستحيل وجبة للأسماك.

منهم من لديه أمل في البقاء مدة أطول في هذه البقعة المجهولة المترامية الأطراف حتى يستبين له الخلاص، لكن بدون طعام ولا ماء سيؤول إلى ما آل إليه غيره ممن لا يظهر منهم غير ملابسهم العائمة المنتفخة.

مرّت دقيقة ونصف على سقوط "أسماء الشافي" التي بدأت تستسلم للموت غرقا، يضاف إلى جهلها السباحة وهَن جسدها. رفعت رأسها نحو السماء ونطقت بالشهادتين محاولة تقبل قدرها الذي صار حقيقة أمام عينيها. غادرت إلى عالم آخر اختفى فيه صوت الصراخ المحيط بها واندثرت الملامح الخائفة من حولها. ابتسمت أخيرا لقدرها الذي كانت تنتظره منذ زمن لتتحرر من قيود

رافقتها طوال حياتها. فجأة أحسّت بيد تحيط بخصرها وسمعت صوتا يناديها ويطلب منها أن تتماسك. فتحت عينيها لترى منقذها "عمر الناجي". استيقظت من تيهها واستجمعت قواها واطمأَنت بعد أن رأته وأخذت تتبع إرشاداته. لم تعلم لماذا بدأت ترى الحياة مشرقة من جديد وقد كانت تنتظر الموت منذ لحظات. بعد أن عادت إليها كل جوارحها وأدركت ما يدور حولها وبدأت تحس بانسياب جسدها فوق الماء، الذي لم يعد حملا ثقيلا عليه، رفعت عينيها نحو "عاتكة عزمي" صديقتها لتطمئنها وتَطمئن عليها. اطمأَنت هذه الأخيرة بعد أن كاد قلبها يتوقف وهي ترى صديقتها تهمّ بمغادرة الدنيا. كانت قد استجمعت قواها بسرعة وتخلّصت من خوفها وألقت هيبة المحيط وراء ظهرها واستقرت على سطح الماء ليستطيع زوجها عمر تركها والذهاب لإنقاذ صديقتها أسماء.

لم يكن هذا الأخير الوحيد الذي ألقى الأنانية والخوف من قلبه وشقّ طريقه ليساعد غيره. فقد استطاع "مروان الرحال" بصعوبة أن يُبقي الأستاذ "هارون النبيهي" ذو الجسد الضخم على السطح ويساعده على البقاء طافيا كجثة مستلقية على ظهرها. في هذه الأثناء هبَّ "أدهم البراق" لمساعدة السيد "رؤوف الرملي" الذي كاد خوفه من عمق المياه ينسيه ما تعلمه من السباحة. بينما ساعدت لبنى زوجته السيدة "ريحان الرملي".

رفع "أحمد ضياء الدّين" رأسه إلى الأفق البعيد وهو يحمل بمعية "إبراهيم سامح" الشيخ "عبد السلام الجبلي"، الذي اطمئن وهو يضع ذراعيه على كتفيهما. بدا أحمد كمن يبحث عن شيء ما أحس بوجوده في مكان قريب. لكن، في هذه الصحراء المائية أي شيء يمكن أن يوجد غيرُ الحيتان والغيلان. بدا كمن يقف على أرض

جرداء تقوده غريزة البقاء إلى البحث عن واحة أو مصدر ماء ولو كان سرابا. فجأة تراءى له شيء غريب يلوح من بعيد، ويحد هذا الفضاء الممتد على مرأى البصر.

بدا وكأن الأفق الواسع الذي ينبغي أن يمتد على بعد آلاف الكيلومترات، محدود على مسافة أميال. نادى الآخرين الذين كان كل واحد منهم إمّا يصارع الخوف والغرق إما يساعد غيره على فعل هذا قائلا:

– "انظروا هناك ... كأنها يابسة".

نظر، كل من استطاع ذلك، باتجاه الشرق حيث أشار إليهم، استغرب البعض كلامه حيث لا شيء يشوب انسياب سطح المحيط. قال له "نعيم الراعي" :

– "هل تمازحنا ونحن نكاد نقضي هنا"

– قال "فريد الرعدي": دعه إنه يهلوس.

في هذه الأثناء كان إبراهيم يدقق النظر نحو الاتجاه الذي أشار أحمد إليه، فجأة صرخ قائلا:

– "إنها فعلا يابسة".

اقترب منه بعض الذين كانوا بمحاذاته واستغرب بضعهم لما رأوه، والذي لم يكن سرابا كما حسب نعيم وفريد بل يابسة حقيقية. بدأت بوادر الأمل تدبّ في عروق كانت قد استسلمت لليأس، وفرح هؤلاء المحكوم عليهم بالموت لرؤيتهم تلك اليابسة التي سيجدون فيها أرضا يطئونها من جديد. فرح كل من سمع بالخبر حتى الذين لم يروها فبُعد المسافة والظلام وعوامل أخرى يمكن أن تحجب الرؤيا عنهم.

لكن هناك حقيقة أخرى تذكروها للحظات أحالت فرحتهم ريبة، ألا ينبغي أن يُلقى بهم في عرض المحيط الخالي من الجزر

واليابسات؟ فهذا ما علموه وأُخبروا به. سرعان ما بدأت الأفكار السيئة تدور في خَلَدِ البعض، ربما يعجّ ذلك المكان بالمجرمين العتاه، أو بسكان لا يحبذون وجود الغرباء. ربما يكون مأهولا بمن يراقبونهم للتّأكد من تنفيذ عقوبتهم أو غير ذلك. لكن لحظات الخوف والتوجس لم تمنعهم من التقدم نحو المجهول الذي تعد مجازفة السباحة نحوه أفضل من انتظار الموت هنا.

بدأت رحلة السباحة إلى يابسة النجاة، وأخذ البعض يساعد من لا يستطيع العوم، حتى يوصله إلى مكان يقف فيه على قدميه ويخرج من الماء بنفسه، ثم يعود ليساعد غيره. بدأ النّاجون يطئون اليابسة بخطوات مترددة وقلوب وجلة وأعين مترقبة. هؤلاء الذين تم الإلقاء بهم للموت في عرض المحيط هل ستكتب لهم النجاة أم فقط سيتغير سبب وطريقة موتهم؟

بدوا كمن يستعد للموت وينتظره. فبرّ النجاة هذا نجّاهم من الغرق وليس من الردى.

لم تمنع مخاوفهم وهم يطئون هذه اليابسة البعض من إظهار فرحتهم مثل عاتكة عزمي، التي أخذت تركض على الشاطئ مباشرة بعد خروج آخر الناجين من الماء وتقول:

– "نحن أحياء ..... لا أصدق هذا"

إلى أن استوقفها زوجها عمر الناجي بابتسامة ترتسم على محياه كلما رآها سعيدة، لافتا نظرها إلى احتمال وجود بعض الزواحف الضارّة أو شيء حاد يمكن أن تدوسه قدماها. سجد الكثيرون فور خروجهم من الماء شكرا لله على نجاتهم، وارتمى بعضهم في أحضان الرمال ليستريحوا من التعب.

استقر كل صديق قرب صديقه وكل قريب قرب قريبه. جلس الأصدقاء أحمد ضياء الدين، عمر الناجي، مروان الرحال، أدهم البرّاق، عاتكة عزمي، أسماء الشافي، طاهر النجمي ولبنى مرزوق، ليستريحوا بالقرب من بعضهم. حريصين على مراقبة المكان وحذرين من أية مفاجآت ليست في الحسبان. بعد صمت دام مدة ساعة لم يسمع خلالها غير صوت التنهد والتأوه والسعال الخفيف، نظر أحمد نحو عمر الناجي وقال:

– "لم يكن ينبغي أن نكون هنا"،

– نظر إليه أدهم البرّاق قائلا: "كان مخططا أن يلقى بنا في عرض المحيط، لماذا ألقوا بنا قرب يابسة؟"

– أضاف مروان الرحال قائلا: "لماذا لا تحاولون أن تعيشوا اللحظة التي بين أيديكم وتستمتعوا بالحياة التي يبدوا أنكم ستطيلون فيها على غير المتوقع".

– أجابته أسماء قائلة " أنت تتحدث عن نجاتنا من الموت في المحيط لكننا نخشى الموت بسبب الوباء وهذا لا يمهل طويلا".

بدأت ذكرياتهم مع الوباء تعود إليهم، ذلك المرض القاتل الذي دون سابق إنذار بدأ يفتك ببطء بكل من يصاب به وتظهر علاماته بعد فوات الأوان وتأخر وقت منع العدوى. سعت السلطات في جميع أنحاء العالم لمنع انتشاره بأي ثمن والبحث عن علاج له، لكن هذا لم ينفع أمام وباء فتّاك يمكن أن يردي قرية بأكملها خلال شهر أو شهرين. بعد طول عراك معه، اكتشفوا أنه ينتشر بسبب الأحياء والأموات على حد سواء، وأن المناطق التي دفنت فيها الجثث بدورها تسرب المرض. شرعوا في حرق الجثث لعلّ أثر الداء يختفي، إلا أن الدخان الصادر كان ملوثا بدَوره. لحماية بني البشر من الانقراض بعد

أن قضى الوباء على ما يقارب ثمن سكان العالم لم يبق إلا حل واحد أمام من تبقى من أصحاب القرار في عديد من البلدان، هو إلقاء كل من ظهر عليه المرض في المحيط قبل موته. وهكذا يتخلصون من مصدر العدوى حيّا وميتا. استقروا على هذا القرار بعد أن علموا أن ماء البحر عازل جيد لهذا الوباء. ذكريات حزينة تزور أذهان الموبوئين، الذين لم ينسوا أنهم ضحايا لهذا الوباء الذي استشرى كالنار في الهشيم. هشيم وجدت النار منه ما يكفي بعد أن كادت الأرض تنوء بعددهم الذي فاق أربعة عشر مليار نسمة ونصف.

تذكرت عاتكة عزمي أول يوم دخلت فيه المستشفى كممرضة متطوعة لمرضى الوباء. كانت وحيدة وحزينة تلملم بقاياها بعد أن فقدت كل أمل في العودة إلى أهلها من جديد. تعرفت إلى صديقتها أسماء الشافي هناك حيث صارت كأخت لم تلدها أمها. أمّا أحمد ضياء الدّين فقد تذكر كيف تعرف بصديقه عمر الناجي الذي اعتبره أخا له بعد أن أنقذه من الموت. واسترجع كل منهم ذكرياته حين انتقلوا من حياتهم وسط مدنهم وقراهم إلى حياتهم في المستشفيات المتفرقة هنا وهناك، ثم إلى مستشفى مركزي حشر فيه كل المرضى والطاقم الطبي من مختلف المستشفيات الفرعية. قد تقرر آنذاك عزلهم في نفس المكان، حيث سيتم التخلص منهم دفعة واحدة. فقد صار هؤلاء الموبوئين يعتبرون كجراثيم مصيرها الحتمي التلف.

مرّت أيام قضوها في ذلك المستشفى ملأها الترقب والحذر، وتخللتها لحظات تعارف وألفة جمعت البعض كهؤلاء الأصدقاء الذين هم من مستويات مختلفة، مكانة مختلفة تساووا فيما بينهم عندما اشتركوا نفس المصير. بعد مرور تلك الأيام تم إعلامهم بقرار إعدامهم في المحيط. صار الموت يتراءى بأشكال عدة، وآثار المرض ظاهرة في

وهنهم الجسدي والنفسي تزيد من وجلهم. في غرف معدة سلفا، طلبوا منهم الاستحمام وألقوا إليهم بملابس بيضاء، راعوا أنها مناسبة لتستر أجسادهم كما تستر أجساد الموتى بأكفان سوف يرتدونها بأنفسهم. أمروهم بالتّوجه إلى سطح المشفى، الطريق الوحيد الذي ترك مفتوحا لهم بعد أن أعطوهم التعليمات حول طريقة ركوبهم الطائرات. كانوا يعاملونهم بقسوة وبطريقة قاسية لا تليق بمن يتم اقتياده إلى الموت، ولا حتى بخائن حقير خان مجتمعه، بل بأي كائن حي على وجه البسيطة. هؤلاء المشتتون المبعدون عن أوطانهم، الذين اعتبروا كشرّ يمشي على سطح الأرض يجب نبذه، بعد أن صار الوباء الكابوسَ الذي يقض مضجع الكثيرين، وهؤلاء هم حملة هذا الكابوس، هؤلاء هم المنبوذون.

هذا المكان قبرنا

بعد أن اطمأنت الأجساد المنهكة من السباحة والمرض والفتور، أنّها على أرض صلبة، تجلّت لهم الحقيقة التي تغاضى عنها الكثيرون، وبدأت تفرض نفسها في حواراتهم الجانبية. تلك الحقيقة التي تتلخص في سؤال جوهري: إلى متى سنبقى أحياء؟ هذا هو السؤال الذي كان يجب مناقشته مع تراكم أسباب الموت المحيطة بهم، ومع علمهم أن لا أحد منهم يملك إجابته.

كان أول من تجرأ على طرح هذا السؤال علنا هو "حيدرة القرعي"، فقد قال بصوت عال مخاطبا الجميع بعد أن صفق "فريد الرعدي" و"نعيم الراعي" ليلفتوا الأنظار إليه:

– "إخوتي ... اسمعوني رجاء، أريد أن أسألكم سؤالا: هل نجونا من الموت فعلا؟ بعضنا قد مات في الطريق، والبعض قد قضى نحبه غرقا في البحر، والبعض الآخر رميا بالرصاص، ونحن لا يزال المرض الفتاك ينال منا شيئا فشيئا. وفي هذا المكان المجهول الذي لا نعلم خباياه ولا حتى موقعه من هذا العالم، هل تعتقدون أننا هنا بأمان؟ ربّما ضحكوا علينا وأوهمونا أننا سنعدم في البحر، والحقيقة أنهم أرسلونا إلى هذا المكان كي يحولونا إلى فئران تجارب يراقبون عن بعد مآلها وردود أفعالها وننتهي في إحدى الأقبية والسجون أو قتلى. قريبا سيجعلوننا حيوانات لا تصلح إلا لاختباراتهم الوحشية، سوف يرموننا بالرصاص إن اعترضنا أو يجعلوننا ضحايا لوحوش مفترسة، أو يحقنوننا بمواد تغير

من جيناتنا ويحولونا إلى مسوخ". قال هذا وهو يشير نحو الغابة وكأنه متأكد أنها تخفي شيئا خطيرا بين أشجارها الكثيفة.

عمّ الصمت المكان، وأنظار الخائفين باتت متوجهة نحوه، وبدأت الوساوس من جديد تسيطر على الكثيرين، وتساؤلات أخرى تسود حوارات المجموعات المتفرقة، والحقائق نفسها تفرض نفسها كأحاديث نفس أو كهمس بين بعضهم البعض: "نحن في مكان مجهول، دون مأوى، ولا طعام، ولا ملابس مناسبة كي تقينا برد الليل أو أشعة الشمس في هذا الجو الصيفي". كانت الغابة أكثر ما يخيفهم، فبقدر ما يمكن أن تكون أملهم في النجاة من الجوع والعطش، بقدر ما يمكن أن تخفي قتلة سواء أكانوا بشرا أو حيوانات يُنهون ما بدأه المرض والنبذ في هذا المكان. كانوا يدركون أن هذه اليابسة لن تخلو من وجود بشر ربما لن يترددوا في قتلهم عندما يعلمون أنهم حاملوا الوباء الفتاك، المنبوذون.

استمرت الأفكار السلبية تسيطر على عقول معظم الناجين، واليأس يتغلغل إلى قلوبهم وكأنهم موتى شيعت جنائزهم إلى قبورهم بأكفانهم البيضاء هذه، وليس ناجين وصلوا إلى بر الأمان. بدأت الفوضى تعمّ المكان، فهناك من همَّ بالعودة إلى البحر لعله يجد من يساعده أو يموت بطريقة أسهل مما يدور في مخيلته المرتعبة، تقودهم هواجسهم إلى احتمال وجود أنذال يقومون بتعذيبهم حتى الموت ومعاملتهم كحشرات لا كبشر. وهناك من أصيب بحالة هستيرية من كثرة وحشية الأفكار التي بدأت تعشش في عقله جعلتهم يخشون حتى بعضهم البعض وحتى خيالاتهم الباهتة.

وهناك من نظر باتجاه الغابة كبسّام القاسمي وبدأ يلقي عبارات تحدي لأي كائن يريد النيل منه. بدأ عمر الناجي وأصدقاءه يهدئون

الجموع المتوترة الثائرة والذين كانوا أكثر من نصف المنبوذين. فالضوضاء الناجمة عنهم صارت الخطر الأول الذي يهددهم حيث يحتمل أن تجذب الانتباه لوجودهم من طرف أي كان ويقعون بين براثن الشرّ الذي يخافونه. تقهقر الطفل أسامة نحو البحر وهو ينظر باتجاه الغابة، غمر الماء أعلى ركبتيه وأردته موجة كبيرة أرضا، استسلم لقوة الأمواج الضئيلة لعلها تأخذه بعيدا عن هذا المكان الموحش. فجأة سحبه نبيل خلاق من ذراعه وساعده على الوقوف، أخذ الصغير يقاومه محاولا العودة إلى البحر الذي بدا له أكثر أمانا من هذه اليابسة. فجأة توقف عن الصراخ والحركة حين سمع عاتكة تقول:

– "أسامة ... هل تريد تركي وحيدة دون صديقي الصغير"

– نظر إليها ببراءة وقال "أما زلتُ صديقكِ؟ ألم تقولي هذا الكلام كي تطمئنيني حين كنت أبكي تلك الليلة في المستشفى"

– قالت بعد أن دنت منه "لا بل كنت أعنيه".

اطمئن الطفل أسامة وهدأ، ورمى مخاوفه وراء ظهره وكأنها لم ترد عليه من قبل. عاد بعدها إلى الرمال الجافة وجلس، وأخذ يراقب الباقين تاركا نبيل متسمّرا في مكانه وهو ينظر إليه مستغربا تغيّره المفاجئ. لكن هذا الأخير كعادته كان غير مكترث بالباقين، حتى أنه لم يردّ على عاتكة حين شكرته ولم يلتفت إليها وغادر. وسط هذه الغوغاء الشخص الوحيد الذي بدا مرتاحا لما وصلت إليه الأمور هو حيدرة القرعي نفسه، وكأنه تعمد أن يسبب هذه الحالة من الفوضى.

فقد تعوّد هذا التاجر، الذي لا يعلم أحد ما الذي كان يتاجر به، أن يفكر أعمق مما يفكر فيه الآخرون. فقد أدرك أنها أرض خصبة واحتمال وجود مؤن فيها وارد، وفي حالة نجوا من المرض سيكونون

مجموعة من الضائعين المشردين الذين تركوا خلفهم بلدانهم وقوانينهم وأعرافهم وتقاليدهم وقادتهم وأصبح بالإمكان اللعب بهم واستغلال رغبتهم في الحياة لأجل السيطرة، في مكان لا مالك له، وعلى أشخاص لا سيد لهم. كان يريد جعلهم كالغريق الذي يتعلق بقشة ويريد أن يكون هو القشة. مستغلا حالة الضياع واليأس كي يخبرهم في الوقت المناسب ما حاول أن يلهيهم عن التفكير فيه، هو أنه قد مر أكثر من ساعة ونصف على وجودهم هنا ولم يسمعوا حتى دبيب النمل، اللهُمَّ حفيف الأشجار وصوت ارتطام الأمواج. فهذا المكان هادئ أكثر ممّا يتخيلون. كأنّه نسي أو تناسى أن المرض الذي يحملونه أكثر ما عليهم أن يخشوه.

استمرت محاولات عمر وأصدقائه في تهدئة الباقين، وقد بدئوا يدركون أن هذا الشخص الهادئ ذو النظرة الماكرة كان يتعمد إحداث حالة الفوضى هذه. فقد سبق أن أثار مشاكل خلال وجودهم في المستشفى واضطر عمر، المشرف الوحيد الذي بقي على قيد الحياة، أن يستعمل حكمته لحلّها. ظلّوا يحاولون بث التفاؤل في نفوس الناجين كي يعوا أنهم على الأقل لا يزالون على قيد الحياة. لكن الكثيرين فضّلوا ترديد نفس الكلمات المحبطة والتي تظهر ما كانوا مقتنعين به "هذا المكان قبرنا".

لم يضع كل شيء

قلوب محبطة ووجلة، نفوس متعبة ومنبوذة، وأجساد مريضة وموبوءة. كيف لهؤلاء الثلّة أن يستعيدوا الأمل في الحياة، والموت يرافقهم كظلّهم. استمرّت حالة الفوضى التي عمّت المكان، وحيدرة ينظر بقلب مرتاح وعينين ماكرتين لباقي المنبوذين. نظر فريد الرعدي نحوه وقال بصوت منخفض:

– "هذا وقت مناسب لتتدخل سيدي فقد باتوا كالغريق الذي يتمنى قشّة يتعلق بها".

كان حيدرة ينظر بإمعان للمنبوذين المرعوبين والمتوترين وابتسم بمكر وقال:

– "معك حق حان الوقت".

بينما كان حيدرة القرعي يستعد لإلقاء خطابه المعسول عن استعداده لمواجهة الصعوبات وخططه الوهمية لهزيمة المجهول القابع في غياهب الأدغال التي يخشونها، تدخّل شخص لم يضعه في حسبانه، وهو عمر الناجي. وقف عمر تاركا الحشود أمامه والغابة خلفه وقال بصوت مرتفع:

– "اسمعوني أيها الناس، رجاء".

صمت البعض محدقين به مستغربين من كونه أعطى ظهره للأخطار القابعة خلف الأشجار، ولكنّ الغوغاء استمرت عند البعض الآخر. حتى صرخ أحمد قائلا "يا عباد الله أنصتوا إليه". توقف الضجيج

والتوتر تدريجيا حتى صار الجو هادئا لا يُسمع فيه ما يلهي مسامعهم عن كلماته. بدأ الكثيرون يترقبون خطابه وكفّت المحاولات الهامشية لتهدئة المرتاعين ونظر الجميع باتجاهه. استهل كلامه قائلا:

– " يا إخوتي، نحن لا نزال أحياء وإلى أن يكتب الله لنا لفظ أنفاسنا الأخيرة، فالشيء الوحيد المطلوب منّا هو العيش واغتنام فرصة النجاة قدر الإمكان، أنتم معرضون للموت في البحر، ومعرضون للموت بسبب هذا المرض، الذي حصد أرواحا كثيرة قبلنا، ومعرضون للموت هنا جوعا وبردا وعطشا، إذاً ما الذي يخيفكم من مواجهة ما وراء هذه الأشجار ... هل ستجدون ما هو أسوأ من الموت؟

إن كنتم خائفين منها فلا تدخلوها وسأذهب في الصباح وأبحث عن ما يمكن أن يساعدنا على الصمود في هذا المكان، وإن لم أعد لا تجربوا أنتم دخولها. أمامنا بحر مليء بالطعام إن عرفنا كيف نستخرجه، وأوراق الأشجار والنباتات إن لم تكن سامة فستمدنا بالماء الكافي كي نحافظ على حياتنا إن عرفنا كيف نستخرجه منها. والآن سنحافظ على هدوئنا قدر الإمكان إلى أن يحل الصباح ونشرع في العمل كي نعيش".

أنصت الجميع إليه باطمئنان وإمعان وكأن كلماته أنستهم ما هم فيه من رعب وخوف. أمّا حيدرة فقد اغتاظ عندما سمع خطابه الذي جهزّه يرتب بشكل آخر ويخرج من فم شخص غيره. وبعد أن لاحظ عمر هدوء الجميع، أضاف كلاما آخر حتى يضمن أن هؤلاء المرضى الخائفين سوف يتحولون إلى مقاتلين مستعدين للعيش بأي ثمن:

– "لقد حاربنا كي نستحيل نطفة بينما الآلاف لم ينجحوا، كبرنا في بطون أمهاتنا وولدنا بينما الآلاف لم ينجحوا، رزقنا بعد ذلك من

حيث لا نحتسب بينما لم يحصل ذلك مع غيرنا، عشنا حياتنا في كد وجهد حتى كبرنا بينما غيرنا لم يتسنَّ له ذلك، مرضنا بمرض قتل الكثيرين أمام أعيننا بينما لا نزال أحياء، وكان من المفروض أن نلقى في البحر ونغرق هناك ولكن الله وهبنا هذه اليابسة كي نقف على أقدامنا من جديد.

الموت شيء مقدر لا محالة ولا مهرب لنا منه وإلى أن يأتي سوف نعيش بكل ما أوتينا من قوة .... سوف نستمر".

– قال الكثيرون بعدها بعد أن صار الحماس متّقدا في نفوسهم "أجل هذا صحيح .... إنه محق ..... كلامه في محله .....".

كان لكلماته وقع في نفوس الكثيرين، واستحالت حالة اليأس والضياع التي كانوا عليها إلى بريق من الأمل والتفاؤل بالمستقبل.

عرف حيدرة القرعي وصديقيه فريد الرعدي ونعيم الراعي، اللذين رافقاه منذ أن كانوا في المستشفى، وسحَرهم بذكائه ودهائه وأغواهم بثروته حتى صاروا كأتباع له، أنهم فشلوا في خطتهم الأولى. لكن حيدرة لم يترك الأمر يمرّ دون أن يدخل في الصورة وقال موجها كلامه لعمر:

– "كلامك صحيح يا صديقي، وسأكون أول من يرافقك إلى الأدغال فإني أمتلك بعض الخبرة في الصيد ويمكنني أن أساعدك في البحث عن الطعام، والماء".

استحسن الكثيرون موقفه، ممّا جعله يحاول أن يلفت الانتباه إليه مجددا ويظهر أنه أكثر دراية من غيره بطرق العيش في مثل هذا المكان. ما إن همَّ بمحاولة التباهي ولفت الأنظار حتى استوقفته كلمات على ما يبدو أنها تقال لأول مرة على سطح هذه اليابسة " الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله،

أشهد أن محمدا رسول الله أشهد أن محمدا رسول الله، حيّ على الصلاة حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، حيّ على الفلاح، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله". نادى الشيخ عبد السلام الجبلي بهذه الكلمات معلنا عن وصول وقت صلاة الفجر. لقد كان ينصت إلى كلام عمر عندما دنا منه أحمد ضياء الدين وسأله عن موعد بزوغ الفجر وطلب منه رفع الآذان وإقامة الصلاة فالصلاة ستلهي هؤلاء المنبوذين عن سوء حالهم وستذكرهم أن الأمل لم ينتهِ لأن مُقدر الأقدار ما يزال وسيظل موجودا.

انتهت الصلاة وانتهى بعدها التوتر والقلق وجلس الكثيرون في انتظار طلوع الشمس للحصول على دفئ أشعتها ولتستنير لهم سبلهم. قريبا سيحل وقت العمل ويبدؤون بتفحص ما تحويه هذه الأرض الغريبة ويتعرفون على البلاد التي ستكون مقبرتهم بعد أن يقضي عليهم الوباء. أرسل عمر الناجي مروان الرحال وأدهم البراق إلى الجهة الشمالية من الشاطئ، بحثا عن شيء يشير إلى ماهية هذا المكان على أن لا يبتعدوا أكثر من ساعة ونصف.

أمّا هو وأحمد ضياء الدّين فقد توجهوا إلى الجهة المقابلة لعلهم يعلمون أيضا بأي بلد حلّوا. أوصى عمر الناجي حيدرة القرعي الذي كان يريد أن يدخل الغابة والباقين، بالبقاء على ذلك الشاطئ حتى عودتهم والحرص على بقاء الناجين في أمان، وأن لا يتّخذوا أية خطوة قبل مرور ثلاث ساعات على الأقل على غيابهم.

انطلق المغامرون في رحلتهم، كان نصف هدفهم منها البحث عن شيء ما يدلّهم على مكانهم أو يجيب على أسئلتهم والنصف الثاني ليكسبوا وقتا ويفكروا في مخرج لوضعهم الحالي، المرض والضياع والفوضى التي توشك أن تندلع عندما يستيقظ الخوف من جديد في

قلوبهم. في هذه الأثناء شرعت عاتكة عزمي بالقيام بمهمة أخرى، وهي البحث عن أشخاص يجيدون الصيد في البحر. بدأت رحلة التحقيق خاصتها والتي كانت تفاجئ بها الكل بسؤال:

– " ما اسمك؟ ماذا كنت تعمل قبل الوباء؟ ما الذي تجيد عمله غير ذلك؟".

تلك الأسئلة التي اعتادت أن تسألها للمرضى الذين كانوا تحت وصايتها في إحدى المستشفيات المحلية، حين تعجز عن الإجابة عن سؤالهم الجوهري وهو: هل هناك علاج للمرض؟. لم تستطع إقناعهم أنّها ليست ممرضة ولا طبيبة وأنّها مجرد متطوعة تساعد في مراقبة المرضى وخبرتها محدودة، لكنهم لم يعاملوها إلا كطبيبة.

حالها كان كحال زوجها عمر الناجي الذي كان يشرف على بعثة طبية بحكم أنه رئيس لجمعية خيرية تطوع بعض أعضاءها لمساعدة الأطباء. لكنّ المنبوذين اعتبروه في موقع مسئولية وأخذوا وقتا طويلا قبل أن يقتنعوا أنه مثلهم سجين في هذا المشفى المنعزل. لكن الكثيرين استحسنوا خوفه عليهم واهتمامه بهم وصاروا يحتكمون لرأيه خاصة بعد موت الكثير من المشرفين والأطباء.

كانت أسئلة عاتكة للمنبوذين في هذه الأثناء تساعد الكثيرين على محاولة استغلال معارفهم ومهاراتهم وتذكرهم بما يجيدون القيام به بعيدا عن الحضارة والرفاهية. بعد أن أنهت التحقيق توجهت إلى أسماء بمشيتها المسرعة وابتسامتها المتفائلة وقالت:

– "لدينا المواد الخام ولدينا من يجيد العمل بها"

سألتها أسماء، دون أن تستغرب من صاحبة المفاجآت والأفكار الغريبة والسباقة، قائلة:

– "ماذا تقصدين؟"

– أجابت "لدينا الخشب ولدينا نجارون، لدينا طين ولدينا نحاتون وبناؤون، لدينا ألياف ولدينا خياطون، إن عشنا أكثر مما نتوقع نستطيع بناء عالمنا الخاص هنا إلى أن نتمكن يوما ما من العودة"

سألت أسماء من جديد باستغراب واستنكار:

– " ألا تزالين تأملين بالعودة ... نحن في عداد الأموات"

فأجابت وقد اختفت الابتسامة من محياها:

– " منذ أن رحلتُ قبل سنوات وأنا أعيش على أمل العودة، لا يهمني أن أستعيد اسمي ولا هويتي ولا أن يعترف القانون بوجودي، ما يهم أن أعود إلى هناك ولو ليوم واحد"

حبست دموعها وابتسمت على مضض وتظاهرت أنها تمازحها، ثم توجهت نحو الأشجار وأخذت تتفحصها وتتفحص النبات الصالح للأكل وقد أخفت عيناها المغرورقتان بالدموع. تبعتها لبنى مرزوق، التي كانت قد سمعت كلامهما، وقالت لها بصوتها القويّ المميّز:

– "نسيت أن هذه الأرض يمكن أن تكون مأهولة ولديها أصحابها وليست خلاء نفعل فيه ما نريد"

أجابت بنفس الحماس السابق الذي كلّمت به أسماء قائلة:

– "لا، بل وضعت احتمال أن أهلها سيسمحون لنا بالبقاء ولو في حيز صغير منها"

– قالت لبنى "أنت متفائلة"

– قالت "ليس كل شخص تمنح له فرصة البدء من جديد وقد منحت لنا يجب أن نتفائل".

اقترب طاهر النجمي أيضا من عاتكة وقال:

– "نستطيع بناء منازل ولو صغيرة باستعمال الأشجار والاستعانة بالرمل والطين"

ردت عليه قائلة وقد اتقدت عيناها حماسا وبهجة:
– "جيد أنك اقترحتها فقد كنت سوف أطلب منك هذا، فلطالما كنت الأمهر في تقويم وإصلاح ما كان يفسد من أثاث في المستشفى ومن أبواب وغيرها"
– رفع رأسه ناظرا إليها ثم قال "هل تعتقدين أننا سنعيش أكثر من يوم أو حتى من أسبوع؟"
– فأجابت بعد أن نظرت بحيرة وتيه "بالنسبة إلي فقد توفيت منذ زمن وأنا الآن مجرد جسد مستلقي يعيش حلما وسأعيشه حتى النهاية، حتى يقرّر ذلك الجسد أن يتوقف عن الحياة ويترك الروح تغادر إلى السماء"
نظر إليها باستغراب ودهشة، لكنها ابتسمت من جديد وقالت:
– "قصدت أني سأعيش حتى آخر نفَس".

بعد أن ارتووا من قطرات الندى وأكلوا بعض الأعشاب الغير السامة والغنية بالماء، بدأ بعض المنبوذين يبحثون عن إمكانية إيجاد أسماك في هذا الشاطئ. والبعض الآخر يفتش عن صخور تصلح لصقل أعواد الأشجار ليبنوا بها أكواخا. والبعض الآخر يمشي بمحاذاة الأشجار لعلّه يلمح بعض الثمار. بينما استلقى آخرون لينهلوا من حرارة الشمس الدافئة وينتظرون نتيجة بحث الباقين. أمّا الأستاذ هارون فكان يشغله أمر واحد، هو كيف يستخرج الماء النقي من البحر مع غياب المعدات اللازمة.

وسط انشغالهم لم يلاحظ أحد اختفاء الطفل أسامة الذي تبع بسام القاسمي نحو الغابة وتبعه نبيل خلّاق بدوره غير عابئين بوصية عمر الذي طلب منهم أن يبقوا مجتمعين. فلم يكن بسام يخشى شيئا ولم يتعود أن يطيع أحدا، حتى أنهم اضطروا لمنعه بالقوة من تناول ما

يزيد عن حاجته من طعام حين توقف تزويد المستشفى بالمؤمن، وصار عليهم أن يقتصدوا في استهلاك المخزون، وأيضا لم يكن رغم قوة بنيته يساعد في ضمان استقرار الوضع حين تتملك أحد المرضى أو بعضهم حالة هستيرية بسبب خوفه من الموت. دخل الغابة، المكان الأنسب لفوضوي مثله، لعلّه يجد ضالته ويسكن في مكان يكون صاحب القرار فيه دون أن يكون ملزما بمشاطرة شيء مع أحد.

لكن هذا الشجاع والطفل الفضولي أسامة وحارسه الأمين نبيل لا يعلمون ما تخفيه هذه الغابة من أهوال. لم ينتبه أحد لدخولهم الغاب، ما عدا فريد الذي كان يراقب الوضع وأخبر حيدرة بذلك فقال هذا الأخير له باستهزاء:

– "دعهم لا شأن لنا بهم، أم أنّك صدقت أنّي هنا لحراسة الناجين كما طلب عمر"

قال نعيم بصوته المستكين المتملق:

– "نعم صحيح لماذا طلب منك هذا ولم تكن تساعده في الحراسة في المشفى؟"

– قال حيدرة "لأنه لا يثق بي ويفضل بقائي مع هذا الحشد على انفرادي بأحدهم".

كان حيدرة محقا في ظنّه، فعمر يعلم بلا مبالاة حيدرة واستغلاله لمواقف كثيرة خلال وجودهم في المعزل وأخطرها لفتُ انتباه الحراس خارج المعزل لمحاولة خروج أحمد، حتى كادوا يقتلونه عندما اكتشفوا أمره. لم يعرف عمر الناجي لماذا يفعل حيدرة ذلك لكنه تأكد أنه لا يمكن أن يثق به.

وهكذا بدأ المنبوذون رحلتهم على هذه الأرض بين ساعي وعامل، وبين مستكين متكل، وبين أناني واستغلالي، ولكنّ معظهم صاروا يؤمنون بحقيقة أنهم يستطيعون البدء من جديد حتى مع الصعوبات الموجودة في هذه الأرض المجهولة، فلم يضع كل شيء.

في انتظار الموت

في انتظار عودة البعثتين، بعثة عمر الناجي وأحمد ضياء الدين، وبعثة أدهم البراق ومروان الرحال من رحلتي الاستكشاف، قرّر بعض الصيادين والمتطوعين محاولة الصيد بنبال خشبية صنعها طاهر النجمي والأستاذ هارون النبيهي. كان طاهر يعلم كما الباقين أن الصيد بالنبال مهمة صعبة، ولكنها الطريقة الوحيدة المتاحة لهم للبقاء على قيد الحياة.

فقد سُدّت أمامهم الأبواب وتقطّعت بهم السبل، وصار بالنسبة إليهم الموت وهم يسعون للعيش خير من الموت بلا حراك، ومحاولاتهم اليائسة للصيد بالنبال خير من قعودهم في انتظار الموت. أمّا عاتكة وبعض المنبوذين فقد سَعوا للبحث عن ما يمكن أن يصلح للأكل من مشارف الغابة دون أن يخطوا خطوة واحدة داخلها. أما السيدة رملة وريحان وأخريات فقد عكفن على صنع سلات بالنباتات لاستعمالها في حمل ما ستجده عاتكة ومن معها. لكن وسط انشغال البعض بالعمل والبعض الآخر بمراقبة الشاطئ ومراقبة المكان، كان آخرون لا يحركون ساكنا ويرتاحون بينما ينتظرون عودة البعثتين وغنيمة الصيادين. كانوا كمن ينتظر الموت على فراش ناعم بدلاً من أن ينتظره وهو يعمّر الأرض. كغالية ناصحي أو غالية المتعالية كما لقبّها البعض التي قالت لأسماء عندما اقترحت عليها مساعدتهم:

– "ألا تدركين ... نحن موتى، ما فائدة أن أعمل وأجد نفسي من جديد مجرد حثالة يتم التخلص منها، ما فائدة بناء مجتمع نعيش فيه ما دمت مهددة بالنّبذ فيه كما نبذت من قبل". صمتت أسماء ولم تجبها.

هكذا بدأ المنبوذون على هذه الأرض بين معمّر عامل ومستكين متواكل. بعضهم قطع صِلاته بالماضي ولم يعد يرى نفسه إلّا ميتا بلا ماضي ولا مستقبل، وبعضهم قطعَها في أعماقه ولكنه قرّر أن يستمر في العيش محاولا البدء من جديد، والبعض الآخر بين هذا وذاك فلا هو ممن ينتظر الموت ساكنا ولا هو ممن قطع صلته بالماضي وبدأ من جديد. كلبنى مرزوق التي لم تنفك عن مراقبة البحر في انتظار وصول دفعة أخرى من المنبوذين، بينما تساعد في حراسة الناجين كي لا يعود منهم أحد إلى البحر يئْسا. حتى أنّها أثارت فضول فيروز الفضولية التي سألتها قائلة:

– "لمَ تنظرين باتجاه البحر لن يصل ضرر منه ... راقبي الشاطئ ... من تنتظرين؟"

– أجابت "أعزّ شخص على قلبي"

– "ليلى؟"

– "أجل ... من المفروض أن تعود الطائرات لإحضار الدّفعة الأخرى لماذا تأخروا؟"

قالت قوت القلوب التي وقفت منذ بدء الحديث:

– "سامحيني لبنى ولكن ليس من المفترض أن يكون كل المرضى محظوظون مثلنا".

ردّت لبنى وقد استشاطت غضبا:

– "لم أطلب رأيك ولم أطلب منك الانتظار معي..."

وقبل أن يحتد الجدال بينهما سُمع صراخ قادم من قلب الغابة. راقب الكل متأهبين ومتوجسين ذلك الاتجاه. بينما ركضت عاتكة التي كانت قرب الأشجار نحو مصدر الصوت قائلة: "إنّه أسامة".

تبعتها لبنى ومنذر الرملي ورؤوف النعجي، الذين كانوا أول من رأى بسام وأسامة ونبيل وهم يركضون في طريقهم للخروج من الغابة. كان بسام متكأ عليهما والثلاثة يهرولون مذعورين نحوهم. نقلوهم إلى الشاطئ خارج هذه الغابة الموحشة. شرعت عاتكة في معالجة بسام بينما سرد نبيل الذي لم يسمح لأحد بفحصة عليهم ما حدث.
قال إنهم وصلوا إلى نقطة مظلمة حيث تتكاثف أغصان الأشجار لتخفي أي بصيص ضوء قادم من الشمس.
فجأة خرج عليهم دبّين يصيحان، حاصراهم في مكان ضيق وبدءا بمهاجمتهم. هاجم أحدهم بسام وأخذ يتعارك معه بينما كاد الثاني ينقض على أسامة إلا أنّ نبيل قام بحمايته وغطى جسده وانتظر الضربة مكانه. بعد أن تمكن الخوف منهما ورأى نبيل نهايته قد باتت وشيكة رحل الدبّين واختفيا فجأة كما ظهرا فجأة دون أن يلمساه بأذى وكأن شيئا ما جذبهم بعيدا.

سيطر الخوف على قلوب المنبوذين بعد ما سمعوا بوجود الدببة، وبدأ البعض يبحثون عن وسيلة لإشعال النار كي تحميهم ليلا من قوارض الغاب. علموا أنهم ليسوا وحدهم على هذه الأرض وأنّها ملئى بسكانها من الحيوانات أو ربما بكائنات أخرى. طلب مُؤنِس من الجميع عدم دخول الغابة وانتظار عودة الأربعة عمر وأحمد ومروان وأدهم. صارت عاتكة تنظر يمنة ويسرة وتترقب بفارغ الصبر عودة عمر بعد أن رأت أن هذا المكان لا يخلو من المخاطر. على أمل أن يعود ليقضي معها آخر لحظات في حياتهما ويودعا بعضهما قبل أن

يلفظا أنفاسهما، فهذا المكان الذي هم فيه ربّما يكون قاعة انتظار كبيرة لمصيرهم المحتوم ... للموت.

مرّت نصف ساعة على عودتهم وانزوى نبيل كعادته واستلقى يريح جسده الجريح، بينما جلس الطفل أسامة وحده مبتعدا عن الجموع وغارقا في أحزانه التي ما تلبث تفارقه حتى تعود إليه من جديد. ربتت عاتكة، التي رأته في تلك الحال، على كتفه وقالت بعد أن جلست بقربه تتأمل البحر:

– "أين رحل صديقي الشجاع؟".

نظر إليها بعينين تائهتين للحظات ثم عاد من جديد يحدق بالأمواج ولم يتفوه بكلمة. أدركت عاتكة أنه تذكر من جديد أمه التي أبعدوه عنها بسبب إصابته بالمرض دونها. ذلك الطفل الوحيد منذ أن دخل المستشفى وهو ينزوي من حين إلى حين ويسترجع ذكرياته معها ليحسّ بوجودها قربه. لم يكن يعيده من سفره نحو الماضي سوى عاتكة التي سعت جاهدة لجعله يتحمل فراقها. تابعت كلامها قائلة:

– " إنها بخير وحتما تتمنى أن تراك من جديد"

– نظر إليها وقال " أليس هناك طريقة لنعود بها إلى الديار؟"

– "لا أعلم ولكننا يجب أن نجد طريقة لنصمد هنا، وبعدها سندرس أمر العودة".

ابتسم أسامة وقال لها:

– "تعديني أنك ستسلمينني إلى أمي بنفسك"

– "أعدك".

ارتاح باله بعد أن كلّمته عاتكة، وقرّر أن يتمشى على الشاطئ ويستمتع بهذا الجو الجميل. لم يكن أسامة وحده الذي كان يتأمل البحر بعيدا عن الجموع المستلقية، أو الجماعات التي تتحرك هنا

وهناك بحثا عن سبل الحياة، بل حتى نبيل. وبينما هو كذلك فجأة أحسّ بشخص ما يدنو منه والتفت بسرعة نحوه وإذ به أسامة. جلس بقربه بينما ابتعد نبيل عنه قليلا دون أن ينظر إليه. قال أسامة وهو يحدق به:

– "أنت لست شخصا سيئا كما يقول عنك الباقون، ربما تكون فظا وعاداتك غريبة ولكنك طيب، شكرا لك لأنك أنقذتني للمرة الثانية".

نظر نبيل إليه للحظات وحبس كلمات كادت تخترق شفاهه المطبقة ونهض بعدها مبتعدا ومحتفظا بصمته.

أمّا حيدرة الذي ما فتئ يسأل بسام ليصف له كل ما حدث في الغابة بينما يدلّك كتفه حتى عرف كل ما استطاع معرفته. توارى عن الأنظار بعدها وأخرج أوراقا كان يخفيها في كيس معلق على صدره تحت ملابسه وشرع يقلب فيها. أقبل عليه تابعيه فريد ونعيم فأخفى عنهما الأوراق دون أن يلحظا وجودها. قال له فريد :

– "ما رأيك بما يحدث؟"

– قال "أخبراني ... هذه جهة الشرق أم الغرب من المكان الذي جئنا منه"

– قال نعيم "وكيف لنا أن نعلم وقد وصلنا هنا ليلا والخوف كان يسيطر علينا"

– قال فريد "سوف أسأل عن هذا الأمر، لا بد أن شخصا ما انتبه. ربما الشيخ الذي صلّى بنا، أو الأستاذ هارون فهو يعلم الكثير عن علم الفلك"

– أضاف نعيم "ليتهم يجدون مكانا آمنا نمكث فيه حتى نجد سبيلا للعودة"

– قال حيدرة مستهزئا " ليتك تكفّ عن التفكير كالأطفال كل ما تركناه وراءنا قد ضاع، نحن موتى في نظر العالم ولا بد أن أملاكنا صودرت أو سرقت ما فائدة العودة"

– قال فريد مبتسما "أتفكر في البدء من جديد هنا؟"

– قال حيدرة "أجل وأن أكون السباق لإيجاد سبل العيش دون أولئك ... الأبطال المزعومين"

– قال فريد "لا أعرف بشأن عمر وأحمد أما عن مروان وفريد فهما أقلّ ذكاء وربما لن يعودا أبدا إن تعرّضا لخطر أو حتى سيضيعان في مكان ما"

– قال حيدرة منهيا الحديث "اتركا الجدل التافه واذهبا لمعرفة ما يفعل الباقون ولا يفوتكما شيء مهم".

لم يكن الذكاء هو ما كان أدهم ومروان يحتاجانه كما اعتقد فريد، وكل ما طُلب منهما أن يمشيا بمحاذاة الشاطئ. لكنّهما احتاجا أكثر للحظ، فبعد ما يقارب الساعة من المشي المتواصل في الشاطئ المترامي الأطراف، قررا العودة وتأجيل مهمتهما تنفيذا لكلام عمر الناجي، خاصة بعد أن أحسّا بشيء غريب يتحرك خلفهما مختفيا وراء الأشجار.

ما عدا هذا الشك لم يقفا على أي أثر لإنسان هنا، ولا لشيء يدل على زيارة البشر لهذا المكان الذي قريبا سيستقبل دفعة أخرى من المنبوذين.

فهناك بعيدا في عرض المحيط، كانت قد وقفت مجموعة طائرات أخرى تقذف دفعة ثانية من المنبوذين. ألقي بالجثث الميتة من طرف الأحياء منهم بأمر من المسلحين المختفين وراء ملابس وأقنعة تقيهم من العدوى. قفز الباقون ولم يكونوا أكثر حظا من سابقيهم، فقد

مات الكثيرون بعد قفزهم مباشرة. لكن هذا كان أهون مما وجدوه ينتظرهم، فهذا المكان من المحيط بخلاف الآخر يعج بأسماك قرش التي كانت تترقب مجيئهم.

انقضّت على الجثث الطافية التي لم يجمد الدم فيها بعد وهاجم بعضها الأحياء. عمَّ الذعر والهيجان المكان، وتسلق البعض فوق الجثث الطافية لعلّه ينجو. مرّت دقائق كانت كساعات بالنسبة إليهم، انتهت المجزرة بعدها وبقي عشرون شخصا أحياء، وبعضهم مجروحين وفّرتهم أسماك القرش المتخمة لوجبة أخرى، فأين المفرّ لهم في عرض اليمِّ الواسع. عم الهدوء المكان، وبدأ بعض الناجين يستسلم للغرق الذي لا مفرّ منه والذي سينجيه من أن يُلتهم حيا.

والبعض الآخر يدعو ليكون الدعاء آخر ما سيفعله قبل أن يصل إلى نهايته. أما البعض فقد جفّفوا دموعهم واستجمعوا قواهم، وقرّروا أن لا ينتظروا مصيرهم الذي رأوه بأعينهم بل أن يبتعدوا. كانت إحداهم هي ليلى مرزوق تتقدم العصبة السابحة، فهي من توسّلت أحدَ الحراس ليخبرها عن مكان إلقاء الدفعة الأخرى. قرّرت أن تسبح باتجاه الشرق كما أشار عليها، لعلها تجد أختها ما تزال على قيد الحياة، وتودعها لآخر مرة في حياتهما وتموتا معا كما عاشتا معا. لم تكن الشخص الوحيد من بينهم الذي دفعه الحب والحنين للمضي قدما، بل أيضا عامر صاحب الخال الذي يقوده حبه لمحبوبته للبحث ولو عن روحها الهائمة ويخبرها لأول مرة عن مشاعره نحوها. أمّا نرجس فقد أرادت الهرب من رائحة الموت المحيطة بها لتتعلق ولو بصخرة وتنتظر الموت جوعا بدلاً من الموت بين أسنان القرش.

أمّا مسعود فقد أصرت ابنته رُبى على مرافقة الباقين رغبة منها في البقاء قرب ليلى، التي سبق وساعدتها وصارت تطمئن لوجودها معها. بحثا عن الأمل وعن الحياة وفي انتظار الموت يسبح الناجون من الدفعة الثانية من المنبوذين نحو الأرض المجهولة.

القلعة الأثرية المهجورة

تأخّر عمر الناجي وأحمد ضياء الدين في العودة، مما جعل حيدرة القرعي الذي عرف تقريبا من الأستاذ هارون الاتجاه الذي هم فيه بالنسبة لبلدانهم وأدرك ماهية هذه الأرض، يستغل الموقف جيدا. فكر بحيلة خبيثة، ينفذها عبر قيادة بعثة إلى الغابة موهما الجميع أنه يغامر بحياته لأجل الآخرين. استغرب الكل عندما سمعوا قراره، فأي مجنون يدخل غابة تملأها الدببة المتوحشة.

أثار إعجابهم هذا الشجاع المقدام وبدؤوا يمدحون شدّته وجسارته. بينما الكل يتهامس بين حيرة وإعجاب واستغراب، همس إلى صديقيه فريد الرعدي ونعيم الراعي بِنِيَّته القيام بخطة لثني الجميع عن دخولها ولو بعد شهور خوفا من الأخطار القابعة داخلها. سأله فريد قائلا:

– "هل تشك في وجود شيء قيِّم فيها وتريد إخفائه؟"

– فأجاب "إني أبحث عن شيء ما إن أجده فسأكون قد حققت حلما مات غيري وهو يحلم به، وعلي أن أكون السباق"

– سأل فريد من جديد قائلا "سيدي ما هو هذا الشيء؟"

– أجابه قائلا: "عندما أجده ستعرفه".

قال نعيم الذي كان ينظر إليهما باستغراب:

– "ألستما خائفين من الدّببة أو غيرها؟ "

– ردّ عليه حيدرة بغضب قائلا: "أيها الجبان ومتى كنت أخاف، سوف تأتي معنا وتنفّذ ما سأقوله دون اعتراض"

حنى رأسه ثم رفعهما وقد تحولت نظرة الاستغراب إلى نظرة خضوع وقال: "حسنا أمرك".

رغم ذكاء فريد ومجاراته لحيدرة إلا أنه لم يكن يدرك عمق تفكيره مثلُه مثلَ باقي المنبوذين، بخلاف نسرين التي كانت ترمقه بنظرات كره لكنها في نفس الوقت تخشاه وتخفي نظراتها تلك عنه. لم يَرق قراره للبعض كعاتكة وطاهر والشيخ عبد السلام والأستاذ هارون.

لكنهم لم يستطيعوا ثنيه عن ما عزم القيام به، وبدأ يستعد لدخول الغابة كأنّه محارب مغوار لا يشق له غبار وبطل من الأبطال العظماء الكبار.

وقبل انطلاق بعثة الأدغال هذه، وصل أحمد ضياء الدين وعمر الناجي إلى مكان تجمّع المنبوذين وهما يحملان خبرا عظيما، خبرا لم يكن أحد ينتظره. كان النّاجون يتوقعون وجود قرية أو مدينة صغيرة أو حتى منازل لسكان بادية، لكن الذي وجده عمر وأحمد شيء مختلف. ففي هذه الأرض الغريبة التي ظهرت من العدم ولاحت لهم كقشة في بحر لجيّ تعلقوا بها يمكن أن يتواجد أي شيء. قالا إنهما وجدا بناء يشبه قلعة أثرية على بعد ساعة ونصف من هنا في الجهة الجنوبية. استرسل عمر في الكلام يحكي ما وجداه ورأياه، وكثرت تساؤلات المنبوذين المقاطعين كلامَه وكان جلّها يتلخص في سؤالين هل هو مكان أثري تابع لبلد من البلدان وسيجدون من يساعدهم فيه؟ أم هو نسي منسي مثله مثلهم في هذه الأرض المجهولة؟.

سأل الدكتور أكرم مقاطعا كلام عمر:

– "إذن هناك بشر على هذه الأرض، من هم ومن أي بلد وأية لغة يتكلمون؟"

وبدأت الأسئلة التي لا أجوبة عنها تتوالى تباعا حتى صمت عمر الذي لم يدرِ من يجيب أولا وتدخل أحمد قائلا:

– "فليصمت الجميع واسمعونا حتى النهاية"

– تابع عمر كلامه قائلا "إنّها قلعة بنيت على جبل ضمن سلسلة جبال صغيرة تطّل على البحر وتشبه القصبات الساحلية التاريخية. شامخة تلوح من بعيد لكننا لم نقترب منها وفضّلنا المجيء لإخباركم عنها أولا. لم نر أيه علامة على وجود سكان فيها أو بشر قربها".

رغم هذا فرح الجميع لأنهم عرفوا أن احتمال وجود شخص ما وارد أو علامة تدلّهم على موقعهم في خريطة العالم. واطمئنوا لاحتمال إيجادهم مأوى يقيهم شرّ الأدغال. بعد أن انتهوا من السرد استمر عمر في الإجابة عن الأسئلة بينما نادى أحمد لبنى التي كانت في آخر الحشد تنظر من حين إلى حين ناحية البحر. ذهب إليها وقال لها وهو يبتسم:

– "لدي مفاجأة لك"

– قالت "لي أنا؟"

ثم طأطأت رأسها وابتسمت ساخرة وأضافت وقد سُبغت ملامحها بالحزن:

– "ما الذي يمكن أن يسعدني بعد أن فقدت أختي؟"

نظر إليها وابتسم بينما رفعت رأسها ونظرت إليه بدهشة مختلطة بالفرح وقالت: " ليلى؟"

– قال "أجل إنها تنتظرك هناك"

قالت له والفرحة تغمرها "شكرا لك أخي بشّرك الله بالخير، وجعلك تنال ما تتمنى".

ابتسم أحمد ونظر باتجاه البحر وقال بصوت منخفض:

– "ليت هذا كان ممكنا". فما كان يتمناه أحمد لم يكن يجرؤ حتى على الدعاء للحصول عليه.

اقتربت منه فيروز الفضولية وقالت:

– "صاحب العينين العسليتين أرجو أن تجيبني على سؤال يؤرقني"

– قال مبتسما "ما هو؟"

– قالت "كيف عرفتما أن المكان على بعد ساعة ونصف؟"

– قال "عمر عرفنا هذا من خلال ارتفاع الشمس وطول ظلالنا"

– قالت "شبيهك في العينين عالم فلك"

– قال مُؤنِس كاسر "عمر لديه تجربة كبيرة من خلال رحلات قام بها ليس إلا".

أمّا حيدرة فقد كان مغتاظا وابتعد عن الجموع مع تابعيه وتمتم بكلام لم يسمعاه ولم يكرره حيث قال:

– "تبّا كنت أتمنى لو أجدها قبلهما إنها ملكي ومن حقّي".

سأل مروان عمر بعد أن أبعده عن حشود كانت تستفسر منه وقال:

– "ألا يمكن أن يكون ذلك المكان ثكنة عسكرية، ففي بعض البلدان يتخذون القلاع القديمة كثكنات للتدريب والحراسة أحيانا"

– قال عمر "بدون راية ولا أبراج مراقبة حديثة لا يمكن أن نعتبرها ثكنة"

– قال مروان "هذا يعني أننا سنواجه مجهولا آخر"

– قال "هل أنت خائف؟"

– قال "لن أقول إني لست كذلك لكن رغبتي في رؤيتها أكبر من خوفي، وأيضا مما سأخاف نحن أشباه موتى أم نسيت الوباء".

ودون تردد عقد المنبوذون العزم على قصد القلعة وانطلقوا في رحلتهم إلى ذلك المكان المجهول والبعض منهم يملأه الأمل بأنه

سيكون ملاذهم. البعض الآخر يسيطر عليه الفضول حول ما تخبأه لهم القصبة من مفاجآت ربما تكون قاتلة. هناك من وضع مسبقا روحه بين كفيه راجيا أن ينجيهم الله مما يخافونه. وهناك من لا يفكر في أي شيء ويترك للدقائق القادمة مهمّة الإجابة عن الأسئلة. تقدم عمر وأحمد الجموع وبقربه حيدرة وهارون وأدهم ومروان وعلى غير العادة نبيل الفظ، وصلوا إلى المكان المطلوب وشاهدوا على بعد كيلومتر من الشاطئ قلعة أثرية تعلو جبلا صغيرا كما وصف عمر. لم تكترث لبنى للقلعة ولا لأي شيء آخر باستثناء أختها التي كانت مع الباقين في انتظار عمر وأحمد وباقي الناجين.

أطالتا العناق والتأمل واطمأنتا على بعضهما البعض وهما تبكيان من الفرحة. حكت لها ليلى كل ما حدث لهم في البحر وكيف سبحوا باتجاه الشرق. كانوا قريبين من هذه الأرض، ولكنهم يسبحون بموازاتها ولم يروا أحمد وعمر وهما يشيران إليهم. سبح هذان الأخيران نحوهم عندما رأوهم وساعدوهم على بلوغ اليابسة.

ما إن رأوا القلعة، لم يتمالك الكثير من الناجين أنفسهم وسعوا لبلوغها دون تأخير، من بينهم مسعود وابنته اللذين وصلا مع ليلى ولم يستريحا بعد من عناء السباحة. بدأ عمر يحاول إيقاف الناس خوفا عليهم من مفاجأة مميتة يعززها اندفاعهم، لكن وبدون تردد هرول حيدرة القرعي وتابعيه باتجاه القلعة وتبعهم حشد من الناس. قال نعيم بينما يحاول مجاراة حيدرة في المشي:

– "سيدي يمكن أن تكون مأهولة بأشخاص سيئين"

– قال حيدرة "أصحابها أشخاص مسالمون لأن الخطرين لا يهملون مراقبة مشارف ديارهم"

– قال فريد "هذا أدعى أن نخاف ربما هم حذرون كفاية وربما خطر آخر يهددهم وقد اختبئوا منه وسنجد أنفسنا عرضة له"
– قال حيدرة بغضب "سيرا وتوقفا عن الثرثرة".

استطاع عمر وأحمد ومروان الرحال وأدهم البراق إقناع الكثيرين بعدم التسرع، فبحكم دراسة مروان للتاريخ وأدهم لعلوم الأرض خمنا بأن صخور هذا الجبل ربما تكون غير ثابتة وأن القلعة نفسها ربما تكون على وشك الانهيار. كما أنّ هناك احتمال أنها ليست قلعة أثرية بل هناك من بناها على هذا المنوال ووضع كل ما يحتاجه من أفخاخ لحمايتها. قرّر عمر والآخرون أن يتبعوهم رويدا رويدا فالحذر لا يعني التراجع ولا يعني التواكل حسب رأيه. استمرت الجموع في التقدم وحيدرة الذي كان يتقدمهم بدأ يتباطأ شيئا فشيئا قائلا لتابعيه:

– "تأخّرا عنهم لا نريد أن نكون أكباش فداء".

بعيدا عن الحشود كان نبيل يمشي ببطء وعينيه مثبتتين على أسامة الذي قرر أن يتبع الجمع دون أن يبالي بتحذير عاتكة.

صدّقت توقعات مروان وأدهم، فبعد أن وصلت مقدمة الجمع إلى نصف المسافة بين القلعة والسفح، حدث انهيار صخري قادم من أعلى الجبل وبدأت الصخور المتدحرجة تهوي نحوهم. سيطر الذعر والهلع عليهم وأخذوا يركضون هنا وهناك مبتعدين عن مرمى الصخور. استحال الصعود نحو الملاذ والنجاة إلى فوضى عارمة بين الجموع المتدافعة. ابتعد الكثيرون عن طريق الأحجار واحتمى البعض خلف حدبات الجبل الثابتة.

وقف عمر ومن معه مكانهم حيث كانوا بعيدين عن الجبل بأمتار مذهولين وهم يرون أول خطر يهدد الناجين والذي ليس بإنسان ولا

حيوان بل هي الطبيعة. هؤلاء الذين نجوا من الموت بشتى أشكاله وقعوا الآن ضحية التسرع والطمع. توفي ثلاثة أشخاص رجلان وامرأة مباشرة بعد أن أصابتهم الصخور في مقتل، وثلاثة آخرون من بينهم طفل في الحادية عشر من عمره بسبب وقوعهم من الأعلى حتى أسفل الجبل. أصيب خمسة أشخاص من بينهم فيروز الفضولية بجروح متفاوتة الخطورة، بينما جرح واحد جرحا طفيفا في يده وقد تعمد فعل هذا حتى لا يظهر أنه ورّط الباقين وأمن نفسه وكان حيدرة. أسرع عمر وعاتكة والباقون وشرعوا في مساعدة المنكوبين.

أخرجت عاتكة أعشابا جمعتها من أطراف الغابة والتي كانت قد حفظتها في سلة أخذتها من السيدة رملة، وبدأت في تفقّد المصابين هي والصيدلية أسماء. جمع الجرحى في مكان بعيد عن مرمى أي انهيار آخر وبدؤوا بإسعافهم ومحاولة تخفيف ألمهم. في هذه الأثناء ذهب أحمد ليطمئن على عامر صاحب الخال، لُقِّب بهذا لأنه الوحيد في المستشفى الذي كان لديه خال في وجهه. قال أحمد لعامر صاحب الخال:

– "كان عليك أن تصغي إلي؟"

– أجابه عامر "عْعـعِندما تـَ...تصير مككاني وت..تحس بما أحح ِ..س به سوف تـ... تعذرني"

– قال أحمد "سوف تقتلك يوما"

– قال عامر صاحب الخال "بل سس..سوف يقتت...لني حُحبي لها".

حاولت عاتكة الاطمئنان على جرح نبيل الذي كان ينزف، ولكنه صرخ في وجهها طالبا منها الابتعاد عنه. تركت له ضمّادات من أوراق الأشجار وطلبت منه غسل جرحه بماء البحر وانصرفت

وتركته في ركنه البعيد ذاك وعادت إلى باقي الجرحى. سألها أحمد الذي غاظه تصرف نبيل الفظ قائلا:

– "لماذا تساعدين هذا الفظ؟ لو أنه غير مجروح كنت جعلته يندم على ما فعله"

– ردت عليه قائلة "أساعده لأن هذا واجبي ولأن أسامة الصغير طلب مني ذلك فقد أنقذ حياته وحماه من الصخور الهاوية ... هو ليس سيئا كثيرا".

كانت نسرين الأكثر خبرة من عاتكة وأسماء في العلاج خائفةً من اندفاعها في مساعدة الجرحى، خشية من حيدرة الذي يرمقها أحيانا بنظرات تهديد كلّما رآها تهمّ بمعالجة أحد. لم تستغرب عاتكة مهارة نسرين لأنها رأتها على الشاطئ تساعد الشيخ عبد الهادي على التنفس بعد أن خرج مختنقا وعرفت منها أنها ممرضة. استغربت عاتكة أنها لم تعرف خلال وجودهم في المعزل أن نسرين ممرضة وظنتها في البداية مجرد شخص تدرب على بعض الإسعافات الأولية مثلها.

في هذه الأثناء عاد المستكشفين أدهم ومروان الرحال اللذين صعدا الجبل من نفس الطريق التي سلكتها الجموع. اتّضح جليّا لهما أنه كان فخا قديما منصوبا، وأن الأحجار التي وقعت تم تحضيرها وجمعها ولم تنجم عن انهيار عادي. أدرك أصدقائنا الآن أنها ليست قلعة أثرية مكتشفة وإلا كان المشرفون عليها وضعوا تحذيرا من الفخ أو حتى أزالوه. بدأت الشكوك تحوم حول سكان محتملين قرروا أن يغيّروا نمط عيشهم ويسكنوا أماكن تشبه الحصون القديمة أو حتى في أحدها، وأنّهم لا يحبون الغرباء. لم يمنع هذا الاحتمال المغامرين الخمسة أحمد ضياء الدين وعمر الناجي ومروان الرحال و أدهم البراق وطاهر النجمي من خوض غمار التجربة ومحاولة الصعود مرة

أخرى، فلم يكن هناك مجال للتراجع. وقد قرر حيدرة القرعي الذي كان قد ألغى الخوف من قاموسه منذ زمن أن يذهب برفقتهم كي لا يضيع منه شرف لفت الأنظار، وفرصة حشد المعجبين والأنصار مصطحبا نعيم الراعي بينما أوصى فريد بمراقبة الوضع هناك.

بدأ البحث عن طريق معبَّد يستعمله أو استعمله سكان هذه القلعة، فلا يمكن أن يكون شخص ما بنى هذا الصرح دون أن يتخذ طريقا يستعملها وترك الزمن منها ما يميزها. بدأ المتسلّقون يحومون حول الجبل ويتفحصون بدقة كل شبر منه حتى لمحوا من بعيد شكلا هندسيا غريبا عن باقي الجبل، يشبه الأفعى في أثناء زحفها. تتبعوه بأنظارهم حتى الأسفل وبدا لهم وكأنه يتلاشى كلما اقترب من السفح. اتجهوا نحو آخر نقطة ينتهي عندها المسار حيث وجدوا أثار طريق يبدو أنها لم تعد تستعمل منذ مدة طويلة.

استأنفوا صعودهم أخيرا متتبعين ذلك المسار المحدد بأحجار ذات ألوان مختلفة على جنباته. بينما يهمّون بالصعود التفت أحمد ضياء الدين وعمر الناجي نحو باقي المنبوذين كأنهما يسرقان نظرة خاطفة إلى أحبائهما. لم يكن لأحمد زوجة ولا أحد من أقاربه من بينهم، ولكنه اتخذ الكثير من الأصدقاء.

كان الكل حائرا بشأن هذا الغامض الذي لا يعرفون سبب دخوله للمستشفى رغم قضائه وقتا طويلا دون أن يتعبه المرض كغيره. كانت الوحيدة التي لاحظت ندرة البتور في وجهه ويديه هي الممرضة نسرين، واستغربت رفضه طلبها فحصه مما جعلها ترجح أنه لم يكن مصابا بالمرض، أو ربما جسده يستطيع مقاومته وتأخير أعراضه. بعد التحاقهما بالمستشفى المركزي صارا أقرب لعمر وأصدقائه. لم تمض سوى أيام على دخولهما، حتى ابتعدت نسرين عنهم تدريجيا وصارت

أقرب لحيدرة، بل وباتت تتجنبهم. فجأة توقفت عن طلبها فحص أحمد، بل وتحولت من متطوعة تحاول الاعتناء بالجميع إلى شخص يفضل الانزواء وحده. بقي سرّ أحمد لغزا لم تعرفه نسرين التي لم تزح ناظريها عنه وهو يغادر في هذه المغامرة نحو القلعة الأثرية.

بينما يشيع الناجون الموتى وينتظرون مجيء الآخرين تمكّن التعب منهم وخارت قوى الكثيرين. فقلّة الماء والطعام وفتك الوباء بهم جعلهم أقل قدرة على الاحتمال. قرّر مُؤنس وعاتكة ولبنى وأسماء وسعاد وعامر صاحب الخال ونبيل البحث عن ما يصلح للأكل حول الجبل وقرب مشارف الغاب. بعد نصف ساعة من البحث رأوا شيئا جعلهم يتوجسون خيفة ويستبشرون بالنجاة في نفس الوقت. رأوا كنغرا ضخما يحمل طفله في جيبه، أخذ يتأملهم حين رآهم. كان أكبر حجما من حجم الكنغر الاعتيادي الذي ألفوه، مفتولَ العضلات، قدماه ذات لون غامق. لكنهم لم يطيلوا لحظات استغرابهم وبحثوا حولهم خوفا من أن يكون قطيعا من غنغر متوحش سينقض عليهم.

لكنه سرعان ما غادر واختفي خلف الأشجار. أمّا ما جعلهم يستبشرون ليس وجود هذا الحيوان البري، بل وجود مشتل واسع يحتوي على أشجار مثمرة بفواكه لم يروا لها مثيلا. كانت أكبر حجما ومنظرها يسيلُ لعابَ كل من يراها. لم تكن الأشجار وحدها الغريبة، بل حتى ثمار العنب وتوت بري أكبر حجما مما ما عهدوه. وغيرها من الثمار الصيفية التي منها ما لم يعهدوا وجودها في بلدانهم. كان الحقل غريبا عنهم فكما قالت عاتكة لو أنشئت مشتلا واعتنيت به جيدا ما كان سيكون معطاء بهذا القدر، وهذا المنظر لم يره البشر منذ سنين عديدة، منذ أن كانت الأرض معطاءة والماء وفير والتربة جيدة وعدد

السكان ليس أربعة عشر مليارا ونصف كما هو الآن أو بالأحرى قبل الوباء. أضافت عاتكة قائلة:

– "كنت أظنّ أن الأعشاب التي على الشاطئ، بل والأشجار من نوع آخر غير الذي عهدته لاختلاف حجمها ونضارتها ونضجها لكن كل ما على هذه الأرض مختلف"

– قال مُؤنِس "قلعة أثرية وثمار لم يعد لمثلها وجود ربما عدنا بالزمن إلى الوراء على هذه الأرض".

عرفت عاتكة من خلال آثار الثمار المتساقطة وحال الأرض أنها مهملة ولا يمكن أن تكونَ يدُ بشر تعتني بها. قالت لهم منبهة إياهم للأمر:

– "هذا المشتل مهجور منذ سنين علينا التأكد من سلامة هذه الثمار".

وما إن أنهت كلامها حتى قطف نبيل ثمرة تين وأكلها ثم أتبعها بعد حبات العنب. صرخت به قائلة:

– "انتظر يمكن أن تكون سامة"

– أجاب قائلا "لهذا أجربها".

لم تستطع أن تقنعه باستفراغ ما أكله، توقفت قلوبهم خوفا من حدوث مكروه له لكنهم اطمئنوا بعد دقائق عندما تأكدوا أنه لم يتأذَّ. ارتاح بال أصدقائنا وأكلوا بعض الثمار في أثناء قطفهم لِما يكفي جموع الجائعين الذين تركوهم خلفهم والذين ينتظرون عودتهم من البعثة محمّلين بما لذّ وطاب. وبينما هم كذلك قالت أسماء لعاتكة:

– "قلت أن يد بشر لم تعتنِ منذ سنين بهذا الحقل، ولكن لماذا لم تستغله الحيوانات؟"

– قالت سعاد "ربما لأن بالغابة ما يغنيهم عن هذا الحقل"

– قالت لبنى "ليتنا كنا نستطيع دخولها فهذا الحقل صغير بالنسبة لعدد الأفواه الجائعة التي ستأكل منه"

– قال مُؤنِس بعد أن نظر إلى الغابة مليّا "وما الذي يمنعنا، يجب أن نفكر بالأمر". قال هذا بقلب قوي وعينين متقدتين بالعزم.

أمّا عن عمر وحيدرة ومن معهم، فقد استمروا بالسّير في ذلك الطريق الذي صار أوضح لهم شيئا فشيئا. تحدّه من الجانبين أحجار صغيرة، كلّما تقدموا فيه أصبحت الأحجار أكبر ومن نوع آخر. وصلوا إلى نصف الطريق، فوجدوا أن تلك الحواجز الصخرية صارت مزركشة ومنحوتة كأشكال هندسية بديعة بعد أن تعدّى طولها سيقانهم. وكلّما تقدموا صارت أشكالها مختلفة وأكبر حجما وكأنهم وصلوا مكانا آخر به صخور جلبت من مصدر مختلف منحوتة من طرف أشخاص آخرين. اقتربوا من القلعة وباتت الأحجار أعمدة يصل طولها إلى طول أحدهم والأرض المتربة المعبدة صارت أرضا صلبة مزينة بحصى صغير أملس، حجمُ أحداها كحجم الفاصولياء. حباتها من مختلف الألوان الرائعة المبهرة ومترابطة فيما بينها بصمغ قوي ذو لون أحمر. لا يغطي روعة الأرضية غير الغبار المتراكم عليها وأوراق الأشجار المتطايرة.

أما ما فتنهم حقا كان منظر الباب الضخم الهائل المزين بمنحوتات من معادن مختلفة، فحتى من اعتاد منهم رؤية وسكنى القصور لم يروا مثل هذه الضّخامة والزخرفة. أمّا الزركشة فقد كانت فنّا بديعا يذهل العقول، والباب كان مقسوما إلى مقسومة إلى شطرين متساويين الأيمن منهما به باب صغير. طرقوا الباب الصغير بعد أن انتهوا من فحصه، وصفقوا ليثيروا انتباه سكانها لكن ما من مجيب. نادوا بأعلى أصواتهم لكن دون جدوى، في النهاية توقفوا ليتأملوا

الأتربة والغبار التي بالباب وباقي محيط القلعة الذي على مرمى بصرهم وتيقنوا أنها مهجورة منذ سنين. لم يكن فتح الباب الصغير سهلا فقد أُغلق بإحكام وكأنه صار ملتصقا كليا بباقي الباب. أدركوا أن فتحه بدون استعمال مفتاح أمر صعب. فقوّة المنبوذين المتعبين جميعا لن تكون كافية لزحزحة أحد شقي هذا الباب وعليهم إيجاد سبيل آخر للدخول ما داموا لا يملكون المفتاح، عدا أنهم لا يعرفون عواقب فتحه وما يخفي خلفه.

فجأة لمح مروان شيئا لم ينتبهوا إليه من قبل. فوق الباب على السور كُتبت جملة لم يستطع قراءتها فقال وهو يشير إليها:

– "انظروا هناك، ما هذه الكتابة؟ تلك دال وتلك حاء .... الحروف متداخلة فيما بينها ... لا أستطيع قراءتها"

– قال أحمد "ادخلوها آمنين"

– نظر مروان إليه بدهشة وقال "تجيد قراءة هذا النوع من الخط؟"

– قال "وغيره"

– قال "كنت أتمنى دائما تعلمه إن لم نمُت ستعلمني أنواع الخطوط التي تعرفها"

– قال عمر ناظرا إلى الأعلى "هناك شيء ما على ذلك السور تحت الكتابة مباشرة"

– قال أدهم "أجل كأنه كيس أو ما شابه"

– قال أحمد "تحت تلك العبارة والقلعة مقفلة ولا يوجد بها أحد ... يمكن أن يكون المفتاح"

قال حيدرة وقد بدت علامات البشرى عليه:

– "إذن من منكم يصعد إلى هناك ليحضره؟ فأنتم أقوى مني وأكثر ليونة"

– قال عمر "سأفعل"
وتقدم، ولكن أحمد أمسك يده وقال:
– "بل أنا سأفعل"
– ردّ عمر قائلا "أنا جربت تسلق الجبال، أقدر على فعلها بعكسك أنت، سوف أذهب أنا ... سأكون بخير أحمد".

أفلت أحمد يده، وتسلق عمر الباب مستغلا زركشته بشق الأنفس حتى ظنّ مرارا أن قدمه ستنزلق وأنه هالك، إلى أن وصل موضع الكتابة حيث يوجد الكيس وجلس هناك والتقط أنفاسه. ودون أن يحرك الكيس فتحه فوجد ما توقع أحمد وجوده، مفتاحا فولاذيا لم يغير فيه الزمن شيئا بعكس الكيس الذي كان يحويه. ألقاه إلى الباقين حتى سُمع صدى دويه على بعد أميال. التقطه مروان وأدهم بينما انهمك أحمد بتنظيف الفتحة التي اتضح أنّها مغلقة بأثواب حريرية حمتها من الشوائب. بدأ فتْح الباب، بينما تابع عمر صعوده لِقمَّة السور إذ لم يجد سبيلا للنزول سالما.

دخل الباقون من الباب بينما وقف عمر فوق السور يتأمل روعة هذا البناء. كان صرحا ضخما من ثلاث طوابق كأنه مجمع سكني ضخم، يحتوي على غرف ومنازل أبوابها الأمامية تطل على الساحة الواسعة الوسطى. أعمدة وحيطان الصرح بخلاف سور القلعة الخارجي ملساء، وكأنها صقلت بإمعان أو صنعت من رخام جيد الصنع، أو دهنت بدهان مقاوم للزمن. ألوانها من الأصفر الكلسي والأحمر والأزرق والأسود. وقبالة الباب في آخر الساحة هناك ما هو أعجب، قصر ضخم من ثلاث طوابق أفضل من باقي المنازل في شموخه واعتداله وحسن صنعته. نزل عمر من درج موجود بالداخل ليقابل الباقين عند الباب والذين لم يكونوا أقلّ منه ذهولا.

أمّا عاتكة والآخرون، الذين وجدوا الحقل، فقد عادوا إلى الناجين بما يشبع رمقهم مما استطاعوا جمعه من ثمار. التهم الناجون الفواكه اللذيذة، وبعد أن دبّت الحياة في أوصالهم من جديد، طلبوا ممن وجدوا الحقل أن يدلّوهم على مكان المزرعة. بعد أن عرفوا مكانها قرّر الكثيرون ومنهم فريد الذهاب وأخذ ما يريدونه منها. لكن هذه الحشود النهمة المنبوذة التي تنتظر الموت بالوباء أو بغيره لن تراعي الحفاظ على المزرعة أو على ثمارها، وستأتي على الحي واليابس وإن عاشوا أسبوعا آخر لن يجدوا ما يأكلونه. لم يستطع الشيخ عبد السلام وعاتكة والباقون منعهم، واندفعت الحشود إلى الحديقة الغناء. وكما كان متوقعا هجم الحشد على الحقل كأنه جيش يقاتلونه.

دمّروا الكثير من نباتاته واقتلعوا الكثير من الجذور وكسروا بعض الأغصان وبدؤوا يلتهمون ما يقطفونه، ويخبئ بعضهم بعضا منه في ملابسه، والبعض في السلات التي أخذوها دون إذن أصحابها. فجأة وبينما هم كذلك سُمع صراخ يهز القلوب قادم من الغابة، التفتوا نحو مصدره وإذ بهم يرون دُبًّا بريًّا ضخما يخرج منها متّجها نحوهم. بدأ الكل يركض هنا وهناك، والبعض يسقط وتدوسه الأقدام الحافية المرتعدة وينهض بعد أن تذهب الجموع ويغادر مسرعا مكابرا ألمه. ظلَّت عاتكة ولبنى وعامر ونبيل ومُؤنِس يراقبونهم من بعيد، حتى عاد الكل مهرولين من حيث جائوا. وقف الدّب بعيدا ينظر إليهم ويصرخ بينما بدأت عاتكة تدنو منه، وقد أخفت خوفها في أعماقها السحيقة وتبَّثث نظرها صوبه. نادتها لبنى قائلة:

– "ما الذي تفعلينه سوف يقتلك؟"

– قالت دون أن تزيح نظرها عنه "لم نحضر طعاما لمن صعدوا الجبل، وهذه الثمار التي أوقعوها سوف تفسُد وعلي جمعها كي لا تضيع هباء"

– قال مُؤنِس "تغامرين بحياتك لأجل هذا"

– قالت "حياتنا إن لم نمت بالوباء تتوقف على قدرتنا على التعامل مع هذه الحيوانات والحفاظ على هذا الحقل، يجب أن أتفقد جذور النباتات التي اقتلعوها لعلّني أستطيع إعادة بعضها".

تقدمت ببطء بينما تراجع الدب نحو الغابة تدريجيا. استغرب الأربعة شجاعتها وبُعد نظرها وأيضا تراجُع الدب بسهولة واختفاءه. عادت عاتكة ومن معها محمّلين بالثمار المتساقطة إلى الباقين. وجدوا الكل متسمّرا مكانه ينظر بترقب نحو الغابة، والبعض يحملون عصيّا وأحجارا وكأنهم متأهبون لقتال. قالت عاتكة مخاطبة الجميع بصوت عال:

– "تصرفكم كاد يحضر المزيد من تلك الدببة الغريبة، علينا أن نكون حذرين في التعامل معها، لقد أحضرنا الطعام للأطفال ولمن لم يتناول شيئا. الآن اهدئوا حتى يعود الباقون لعلهم يجدون لنا مكانا آمنا".

– قال فريد "كل ما أردناه العيش حتى نموت، وما المشكلة إن أكلنا ما نريده سوف نموت وسيبقى للذباب والدود"

– قالت قوت القلوب لعاتكة "لا تملكين الحق في لومنا أم تريدين أن تحلي محل من نبذنا هنا وتقرري مصيرنا كما فعلوا"

قالت لبنى بصوتها القوي:

– "حسنا، من يريد الطعام فليأخذه من فم الدّب فهو ما يزال بالغابة وربما الكثير غيره"

صمت الجميع محدقين نحو الغابة فهم يعلمون أنهم أجبن من أن يذهبوا إلى هناك. كانت قد مرت ثلاث ساعات على رحيل المغامرين الذين عاد منهم أحمد ونعيم إلى باقي الناجين وقد ظهرت على محيى الأول علامات البشرى والتف حوله الجميع وقال لهم بكل ثقة:

– "يا رفاق هلمّوا إلى منزلكم فقد صارت هذه القلعة المهجورة مأوانا".

أين هم أهلها؟

تعدّدت أسئلة المنبوذين وتساؤلاتهم التي بقيت حبيسة أذهانهم، وتمنوا لو أن عمر هو من جاء لاصطحابهم، لكانوا استطاعوا إشباع رغبتهم بالمعرفة. فقليلون من كانوا لا يستحيون من أحمد ويطلبون منه معروفا أو يتدخلون في بعض أموره. فهذا الغامض الذي أثار صمتُه وعدم تحدثه عن نفسه وحياته وعدم تدخله في أمور الآخرين فضول الكثيرين، لم يكن يكثر الكلام ولا يطيل في حديث إلا مع الشيخ عبد السلام وعمر وعامر. لا يضحك وترى أسنانه البيضاء المتراصة حتى يكون معهم ولا يتوجه بالكلام لأحد إلا في أمر مهم وبإيجاز.

بحث بعض الناجين عن نعيم ليشبع فضولهم، ولكنه اختفى عن الأنظار بعد أن اعتذر عن عدم الرّد عن الكثير من الأسئلة. ووسط تلهف الجميع لمعرفة ما يوجد أعلى الجبل وماهية ذلك الصرح كسَر الدكتور أكرم والأستاذ هارون التردّد وتوليا مهمة طرح الأسئلة على أحمد، ووصف لهما كل ما رآه بإيجاز. استهل وصفه بوصف الطريق وزخرفة الأعمدة والحواجز وضخامة القلعة وبابها. ثم تابع قائلا:

– " دخلنا القلعة وبدت لنا كحصن قديم يمزج بين تاريخ عدة حضارات قديمة من مختلف أنحاء العالم. عبارة عن بناء غريب كالقلاع الأثرية القديمة بل وأروع مما سبق ورأيته".

تابع أحمد وصف القلعة، وكيف تتطابق جهتاها وزخرفتها وحسن صنعها. وصف الأسوار المحيطة بها وكيف يطل أحدها على البحر في الغرب، وآخر على الغابة في الشرق. وصف القصر من الخارج إذ غادر قبل أن يجلب عمر المفتاح الذي كان معلقا فوق بابه كمفتاح القلعة. توقف أحمد عن الكلام فقد أنهك وهو يصعد الجبل ليقود حشود المنبوذين المتلهّفين لبلوغ المأوى الجديد. لكنه تابع كلامه حين سألته عاتكة قائلة:

– "قلت إن الجهتين متطابقتين أهما متطابقين حتى في الفراش؟"

– أجاب "الجهة اليمنى من القلعة مخربة وقذرة بخلاف اليسرى التي بدا عامل الزمن واضحا عليها لكنها مرتبة وسليمة وأثاثها جيد. رجّح مروان وأدهم أن الجهة المخربة تعرضت لموجة مدٍّ خربت ما فيها".

– أنهى أحمد وصفه قائلا "الباقي سوف ترونه بأنفسكم".

بينما كان أحمد يصف ما رآه ويرد على الأسئلة الشغوفة، كان نعيم منشغلا في أمر آخر كلّفه حيدرة به وأخبر به فريد ليساعده. بدآ ينفردان بالمنبوذين كل على حدى ويحرضانهم على استيطان المنازل في الجهة اليسرى، وأخبراهم أنها الأفضل والأجمل.كان يختاران من يعلمان أنهم لن يفضحوا أمرهما. كان نعيم يقول أن عمر قرّر اختيار المنازل الجيدة لأصدقائه ومن يليه، وترْك الباقين في الجهة المخربة وصدق الكثيرون كلامه.

في هذه الأثناء في القلعة، كان عمر يناقش الباقين حول أحقيتهم في سكنى هذه المنازل التي ربما غاب أهلها لفترة وسيعودون. لكن حيدرة أصر على أنهم يجب أن لا يفكروا بهذا الأمر، وعزز قراره حالُ الجهة اليسرى المخربة والتي لو كان هناك من يسكنها لما تركوها على هذه الحال. ثم أضاف حيدرة:

– "لن تستطيعوا منع هؤلاء المنبوذين من العيش في القلعة وإن حاولتم سوف يرفضون وتعم الفوضى، وأنت عمر لن تستطيع تحمل العواقب".

لم يجد عمر ومروان الذي يميل لرأيه بدّا من الموافقة، فلا ملجأ غيره أمامهم وكما قال حيدرة لن يصوم المنبوذون عن الرفاهية التي في الغرف والمنازل ويستقروا في العراء. لكنّ عمر واجه مشكلة أخرى، فقد أصرّ حيدرة على أن يقطن في القصر، وأخبر عمر أنّه لن يسع الجميع وسيطمع الكل فيه لذلك يجب أن يتفقوا فيما بينهم على من سيسكنه. أغلق عمر باب القصر، وانتظر حتى يرى ما سيحدث بعد وصول المنبوذين.

أمّا نعيم وفريد في مهمة الوسوسة التي يقومان بها، كانا يختاران الأشخاص الذين عهدوهم متواكلين، استغلاليين، فلا عجب أنهم ممن اختاروا الراحة على الشاطئ بدلاً من العمل كالباقين، وممن اختاروا صعود الجبل بتهور بدلاً من الحذر، وممن اختاروا استنزاف الحقل بدلا من حسن الكياسة وحسن التصرف، وممن كادوا يسطون على مخزن الأدوية في المشفى المركزي لولا أن أحمد سبق وغير مكانها.

وصل المنبوذون إلى القلعة، وانبهروا بروعة بناءها وزخرفتها الذي فاق تخيلاتهم، وتاهت أبصار الكثيرين وهم يتأملونها. بينما استغل الذين حرضهم تابعا حيدرة وتركوا الانبهار لوقت آخر، استغلوا انشغال الباقين واحتلوا الشقق الفاخرة التي على الجهة اليسرى في الطوابق العلوية، وآخرون احتلوا الغرف السفلى في نفس الجهة. فطن المنبهرون لما يجري ولما قام به الانتهازيون بعد فوات الأوان، وامتلأت الشقق والغرف عن آخرها. لم تنجح محاولات عمر والباقين بإقناع المنبوذين الانتهازيين للخروج من الغرف والشقق في

انتظار توزيعها. عمَّت الفوضى المكان وبدأت الاعتراضات والجدل والمشادات بين الانتهازيين والباقين. فقد رأوها فرصة ليعيشوا براحة ورفاهية ما تبقى لهم من أيام، لعلّهم يتخلصون من الإحساس بالنبذ الذي يلاحقه. فكما قالت قوت القلوب للبنى:

– "لم أعد أريد العيش على الهامش حتى أجد نفسي من جديد منبوذة".

كانت لبنى تعرف معنى كلام قوت القلوب ولولا أصدقاءها لكانت حذت حذوها لأنها أيضا جربت العيشة المرّة والنبذ. أما غالية فقد ردت على عاتكة بعد أن طلبت منها انتظار توزيع الناجين قائلة:

– "لن أبقى هنا حتى أصير مجرد زبالة ينبذها الآخرون عندما لا يحتاجون إليها، حتى وإن عشت أسبوعا آخر فقط سأعيشه كسيدة لا كمنبوذة".

وبينما هم كذلك، صعد عمر الدرجات التي أمام باب القصر، وصرخ بأعلى صوته لإسكاتهم بمساعدة أحمد وأدهم. صمت الجميع على مضض واستهل كلامه قائلا:

– "ليس من حقنا أن نسكن هنا، وهذه القلعة ليست ملكنا حتى نتخطفها بهذا الشكل، علينا أن نوزع الغرف والأسرّة بالعدل ونحافظ عليها في حال عاد أصحابها"

قال مسعود الذي كان قد اتخذ شقة فاخرة في الطابق الثاني:

– "ولماذا خلت من سكانها، ربما غادروا بدون رجعة ونحن نحتاجها وأولى بها يكفينا ما عانيناه"

– قال نعيم "لستَ من تقرر هذا يا عمر ونحن لن نغادر منازلنا، أم تريد لعب دور من نبذونا هنا وتختار بنفسك من يليق به النعيم ومن ينبذ في الخلاء"

قال حيدرة الذي بدا مطمئنا لما يحدث لأنه حقق هدفه:
– "معهم حق يا عمر قد اخترنا أماكن سكننا والباقون يمكن أن يقطنوا في ما تبقى ففي النهاية كلنا سنموت بعد أيام".
– أجاب عمر قائلا "تقصد اخترت جناحك في القصر، وكما قلت سنموت قريبا فلم لا نعيش جميعا في النعيم"
– قال فريد "قد سبق السيف العدل، ولا داعي لهذا الجدل، ما ذنبهم كي نخرجهم بعد أن استقروا ومنَّوا أنفسهم بتلك الغرف في ما تبقى لهم من أيام"
– قال طاهر "بأي حق تسكنون أنتم هذه الشقق الفاخرة والباقون يسكنون في الخراب"
– قال حيدرة "من سبق ... هنيئا له بالطبق، لم يمنعك أحد من المباردة، وبصفتي ممن غامروا ودخلوا القلعة، يحق لي أن أقرر بشأن أحقيتهم بها، أفوض لهم هذا".
هتف له كل الانتهازيون وأقروه على هذا القرار. قال أحمد بعد أن توقف الهتاف:
– "حسنا جيد أوافقك الرأي حيدرة"
ضحك حيدرة وتفاخر بفوزه بينما تابع أحمد قائلا:
– "إذن فلنُعد كل شيء إلى أصله"
– قال حيدرة الذي بدأ وجهه يتجهم "ماذا تقصد؟"
– قال عمر "أحمد من وجد هذه الأرض وتطبيقا لقانونك هذا ... هو من يملكها"
– قال أدهم "وإن عدنا أيضا إلى الوراء، فعمر وأحمد من وجدوا هذه القلعة وسمحوا لنا بأن نقطن بها وهما من يملكان الحق في تركنا أو طردنا".

هاجت الجموع من الانتهازيين معترضة على هذا القرار. أمّا الباقون فقد شرعوا في محاولة اقتحام المنازل عنوة ونشب عراك كبير بين الطرفين وعمّت الفوضى.

قال الشيخ عبد السلام لعمر:

– "سوف تكون فتنة كبيرة تسقط فيها أرواح عدد منّا، ونحن في غنى عن هذا ... أصلح الأمر بحكمتك التي عهدناها فيك".

– قال أحمد لعمر "تولّى الأمر وأمسك بزمام الأمور فهؤلاء المنبوذون لم ينسوا بعد أنهم عوملوا كحثالة، وفي حالتهم هذه سيفعلون أي شيء لتجنب اضطهادهم مرة أخرى، ولو كان ردّ فعلهم هو اضطهاد بعضهم البعض".

أسكت عمر الجموع وتوقفت الفوضى وتمنى كل من الخصمين أن يكون كلام عمر في صالحه. استهل كلامه قائلا:

– " كاستثناء للقاعدة سوف أسمح لكم بالبقاء ولن أطالبكم بالمغادرة، شرط أن لا يلمس أي منكم القصر، ولا يحق لكم امتلاك أي شيء فيه باستثناء من وصلوا إلى هنا أولا وهم أنا وأحمد ومروان وأدهم وحيدرة ونعيم. وأن تتركوا غرفة للشيخ عبد السلام وغرفة لعيادة، وغرفتين خاليتين في الطابق السفلي كي تستريح السيدتان الحوامل فحال الغرف الأخرى متردية ولن تليق بهم. ولا تقربوا الحقل أو تثيروا أيه مشكلة أو تعتدوا على أملاك بعضكم البعض.

وأخيرا سوف يُخرج كل منكم غطاء وثوبين نظيفين كي يغير الباقون ملابسهم ويستريحوا. هل هذا يريحكم؟ أم نخرج جميعا من هنا ونموت في الخلاء".

– قال حيدرة وقد بدا الغضب عليه "تريد أخذ القصر؟"

– قال "سيكون لك فيه جناح ولنعيم أيضا كما سبق وقلت، هل لديك حل آخر لتجنب المشاكل؟ وإن كان علينا قسمة القصر وممتلكاته، سينطبق الأمر على كل القلعة ... ما قولك؟".

صمت حيدرة الذي عدم الحيلة في إيجاد مبرّر منطقي يعطيه الحق في أكثر من جناح في القصر، وعلم لماذا أبقى عمر القصر مقفلا كأنه أحس أن بأن حيدرة يريده. رجع كل من كان قد هجم على المنازل القهقرى ولم يعد للباقين وهم الانتهازيون خيار غير الموافقة وقد فازوا بنصيب الأسد. رضخ الجميع للقرار وصمتوا عن منعهم من الحقل، وتنازلهم عن أربعة غرف فهذا أفضل من لا شيء، رغم أن مسعود كان يريد شقة له وحده وأخرى لابنته كما هو حال الكثيرين. أمّا غرف القصر فقد كانت من نصيب من وجدوا الحقل.

بعد أن أنهى عمر كلامه دنا منه الشيخ عبد السلام وقال:

– "تحلّى بالصبر وضبط النفس حتى يتعوّد الناجون على هذه الحال أو يشفوا من ألمهم بسبب النبذ، ربما تصفى نفوسهم وينسون ألمهم ويتعاونوا فيما بينهم بعيدا عن الأنانية".

طلب عمر من الجميع أن يُدخلوا أغطيتهم إلى القصر ويبيت الرجال في قاعة والنساء في قاعة أخرى، حتى يرتاح المرضى والمتعبون ريثما يتم تنظيف وتوزيع الغرف المخربة. استقر أدهم مع مروان في نفس الجناح وأعطى جناحه لأسماء وسعاد بينما أقامت لبنى وليلى في إحدى الغرف وعامر في غرفة مثلها وكذلك مُؤنِس ونبيل وطاهر. صار أمر التقسيم واقعا لا مناص لهم منه، رغم أن قلوب الكثيرين لم ترتح لهذه القسمة وهم يرون البعض ينعم بغرف مستقلة وهم متراصُّون في قاعتي القصر. ولكنّهم اطمئنوا في نفس، الوقت فهذه القلعة المحصّنة الآمنة قد صارت مأواهم. وخوفا من أن يغادروها كانوا

يتجنبون التفكير في الإجابة عن سؤال الذي يطرح نفسه بقوة، في هذا المكان الخالي من مقابر ومن جثث أو بقايا جثث: من كان يعيش هنا؟ ومن بنا هذه القلعة ومن عمّرها؟ أين هم أهلها؟

تداخل الأزمان

استراحت الأجساد الموبوءة والمنهكة ما يقارب الساعة في هذه القلعة الآمنة ذات الباب المغلق الذي يحميهم من وحوش الغاب. ثم نهضوا بعدها آمّين الغرف المخربة ليصلحوا ما يمكنهم إصلاحه. وذهلوا لما اكتشفوه في هذا المكان الغريب. تسمّر الأستاذ هارون أمام قطعة غريبة مثبتة في ساحة القلعة. مستطيل من الرخام مجوف من وسطه، كقعر كرة، كأنه صحن مجوف مقطوع من جهة من جهاته، تتوسطّه عصا عمودية رسمت عليه خطوط غريبة. وقف الشيخ عبد السلام قربه وقال:

– "هل هذا ما أظنه فعلا أم أنّي أحلم؟"

– أجاب الأستاذ "إنها الساعة الشمسية القديمة، لا أصدق أنّي أقف أمامها، لطالما حلمت برؤية واحدة"

– قال أحمد بعد أن دقّق النظر فيها "هل تعرف يا أستاذ كيف تُستعمل؟"

– أجاب قائلا "أمهلني بعض الوقت وسوف أخبركم إن كانت تصلح أم لا".

أمّا مروان فقد كان في هذه الأثناء متسمرا يحدق قي محتوى أحد الصناديق في جناحه. اقترب منه فؤاد الذي استيقظ قبل لحظات وقال:

– "إلى ما تنظر؟"

– حدّق للحظات بالصندوق وأردف قائلا "ما هذه الآلة كأني رأيتها من قبل؟"
– أجاب مروان قائلا "إنها الأسطرلاب"
– قال أدهم "أظنني سمعت به؟"
– أجابه قائلا "إنه اختراع من بين فوائده معرفة الوقت، ولكن لديه مزايا أخرى، سأعمل على تعلم استعماله بمساعدة الأستاذ هارون"
– قال أدهم "أعجبك هذا يا محب التاريخ، ولكني أهتم أكثر بالبوصلة ... إن وجدت واحدة فأخبرني"
– قال مروان "إننا في مكان خيالي، جنّة الباحثين والعلماء، أقسم أن الكثيرين يتمنون لو كانوا مكاننا الآن"
– قال أدهم ضاحكا "لو كنت مكانهم ما تمنيت هذا".

لم يعرف سكان الجهة اليمنى ومنهم إبراهيم وعبد المعطي تلميذي الشيخ عبد السلام، كيف سيتعاملون مع هذا الخراب الذي حكم عليهم بأن يقطنوا فيه وكيف سيجعلونه مناسبا للعيش، فالفراش عفن والأرض متسخة والفوضى تعمّ المكان. أخذا يتأملان الخراب، ثم نظر إبراهيم إلى عبد المعطي بعد أن ألقى من يده ملعقة صدئة كان قد وجدها قرب باب إحدى الغرف وقال:
– "أنا مطمئن لما حدث ..."
نظر إليه عبد المعطي باستغراب ثم أردف قائلا:
– "في ما يخصّ تقسيم المساكن، رغم أني إلى الآن لست مقتنعا بأحقيتنا أن نسكن هنا"
– ردّ عبد المعطي "لذلك تفضّل أن تسكن في هذا الخراب ... فليرتح ضميرك فهذا المكان مهجور ليس ملكا لأحد"

– ردّ إبراهيم قائلا "أتوق لمعرفة متى تم بناءه ومن بناه وكيف لم يكتشفه أحد من قبل؟"
– قال عبد المعطي، بعد أن حمل آلة حديدية صدئة "انظر هذه الآلة اليدوية تشبه آلة استعملت في زمن غير بعيد لفرم اللحم كيف تتواجد في نفس المكان مع خفّ تقليدي من جلد البقر"
– ردّ إبراهيم قائلا "هذا ليس غريبا ربما اخترعوا هذه الآلة ولم يكتشفوا طرقا لصنع أحدية أكثر حداثة"
– ردّ عبد المعطي "ربما".

وبينما يتفحص الكثيرون الخراب، وصلت عاتكة وطلبت من الجميع أن يصغوا إليها. شرعت في توزيع المهام كما سبق واتفقت مع عمر وأحمد والشيخ عبد السلام وأدهم، أرسلت بعض النساء ببعض الأفرشة والأواني إلى الشاطئ لغسلها وتجفيفها. كلّفت بعض الرجال بجلب ماء البحر بواسطة دلاء وجدوها بين الخراب لتنظيف الشقق وأيضا بتنظيف وجمع كل ما يصلح للاستعمال. لم يعرف الكثيرون لماذا يطيعون أوامرها ويتبعون أرائها، ولماذا صدقوها عندما أخبرتهم أنه بعد صلاة العصر سيكون طعامهم وماءهم جاهزا. شرع الكل في العمل الذي كان يسير ببطء ليس فقط بسبب حالتهم الصحية، بل أيضا بسبب ذهولهم كلّما وجدوا شيئا غريبا يثبت لهم أنهم في صرح تاريخي غريب عنهم وعن ما ألفوه.

اقتربت فيروز الفضولية من لبنى وعاتكة بينما تنظفان الأواني الكبيرة الحجم لاستعمالها في الطبخ وقالت وهي تشير إلى قطعة حديدية بيدها:
– "من منكما تعرف ما هذا الشيء؟"

– أجابت عاتكة قائلة "إنه مصباح تقليدي قديم لم يعد يستعمل إلا كزينة ونادرا أيضا"
– قالت لبنى بعد أن تفحصت المصباح "أشعر بوجود شيء غريب هنا، أشياء غير منطقية تحدث"
– ردّت عاتكة "تقصدين غير مألوفة فقد وجدت في جناحي قلم حبر حديث لم يبدأ صنعه إلا في الثمانينات، كيف يتزامن وجوده مع الحبر والدّواة التقليديين القديمين من العصور الوسطى"
– قالت فيروز "أنظروا إلى هذا الميزان الصغير الصدأ"
– قالت أسماء "ما به؟"
– قالت فيروز وهي تمسك بميزان آخر بين يديها "كلاهما وجدتهما في نفس الغرفة تحت الركام، ومع ذلك الذي في يدي ليس صدئ، بل فقط متسخ"
– قالت عاتكة "ربما صنع بمعدن مختلف، من مصدر مختلف .... لا أدري ربما جلبها سكان القلعة من مصدرين مختلفين"
– قالت لبنى "لكن السؤال الأهم هو أين ذهبوا ولما لم يتركوا ما يدل على هوياتهم؟"
– قالت عاتكة "لندع التفكير في هذه الأمور كي لا نتأخر في العمل".
أمّا الصيدلية أسماء التي لاحظت أن المرضى أكثر من الأصحاء فقد ذهبت إلى غرفة نسرين وطلبت إليها أن تساعدها في إنشاء عيادة.
ردّت نسرين وهي تنظر إلى أدوات وأعشاب بين يديها، قائلة:
– "موافقة، لكني أحتاج أيضا إلى خبرة عاتكة في الأعشاب".
بدأتا تتفقدان الجرحى الذين لم يشفوا بعدُ من إصاباتهم بعد انهيار الصخور، ريثما تنتهي عاتكة من العمل وتبدأ بجمع الأعشاب

المناسبة كأدوية. فدون أن تختار صار على هذه الأخيرة أن تتولى مسؤوليات أكثر، فهي المشرفة السابقة التي نذرت نفسها لمساعدة الموبوئين حتى صارت منهم، وزوجة المشرف الذي صار ملزما بقيادة هؤلاء المنبوذين. أمّا نسرين وأسماء فقد صار دورهما واضحا وعملهما محدّدا في هذه القلعة.

كما وعدتهم عاتكة فقد استطاع مروان وأدهم والأستاذ هارون النبيهي القيام بتقطير ماء البحر، والحصول على كمية كافية منه باستعمال الأواني النظيفة التي في القصر وحطب أحضره مُؤنِس وبدءوا بتوزيعها على العمال. أمّا أحمد وعمر وطاهر فقد ذهبوا مع بعض الصيادين لجمع صدف البحر وبعض الأسماك القريبة من الصخور والخضر من الحقل وجهّزوا طعاما يكفي الجميع. مع حلول المساء كان الطابقين الأول والأرضي نظيفين، وجمعت فيهم الأغراض التي تم تنظيفها.

طلب عمر متطوعين للقيام بحراسة القلعة ليلا، ووجد حيدرة نفسَه متورطا في مهمة الحراسة حتى يجد شيئا يتباهى به بعد أن أمّن عمر وأصدقاءه الطعام والماء للجميع هذا اليوم. أما المدلّلون الانتهازيون، سكان الجهة اليسرى، فقد وصلهم نصيبهم من الماء والطعام ولم يتكبدوا عناء العمل ولا حتى الحراسة، اللّهم بعض من يفضلون أن يتولوا تأمين أنفسهم بأنفسهم لعدم ثقتهم بالآخرين كبسام. مع الفوضى التي قام بها الانتهازيون من قبل، استغرب الكثيرون كونهم استفادوا أيضا من الطعام الذي لم يتكبدوا عناء توفيره. استفسر أدهم من عمر عن السبب الذي جعله يمنحهم الطعام بعد كلّ ما حدث. فرد عليه قائلا:

– "منعتهم من الحقل كي لا يفسدوه، ولكني لا أستطيع أن أحرمهم من الطعام"

– قال أدهم "ولكنهم لم يساعدونا في أي شيء"

– قال عمر "نحن سنساعدهم وهذا سيجعلهم مستعدين للتعايش معنا وسوف يشاركوننا في العمل أيضا، بل وسيتفوقون علينا، المرض ما يزال يؤثر عليهم وعلينا، وتصرفهم هذا نابع من الحالة النفسية التي صاروا عليها بعد كل ما حدث، سنعطيهم ونعطي أنفسنا فرصة ريثما تستقر النفوس وتطمئن القلوب ونعتاد على العيش مع بعضنا البعض في انتظار ما سيؤول إليه الوباء".

– قال أحمد الذي وصل لتوّه لهما مستغربا "ألم تجدوا تفسيرا للأغراض الغريبة التي وجدوها؟"

– قال عمر "كأن الأزمنة كلها اجتمعت في هذا المكان"

– قال مروان الذي وصل قبل لحظات "لكن الطابع الغالب هو التاريخي القديم والذي يعود لمئات السنين"

– قال أدهم "معك حق هذا يعني أنه الأصل وأن الباقي إما تم اكتشافه فيما بعد ووصل إليه التقدم العلمي والصناعي على هذه الأرض، إما تمّ جلبُه من مناطق أخرى ووصل إلى هنا كما وصلنا"

– قال مروان "أتوق لمعرفة سر هذه الأرض وما موقعها من العالم".

من بين كل المنبوذين المنبهرين لما في القلعة من غرائب ومفارقات، شخص واحد فقط كان أقل استغرابا، هو حيدرة. كان قد أوصى نعيم وفريد بالبحث عن أية وثائق مهمة يجدونها في القلعة دون إثارة الانتباه وخاصة إن كانت خريطة. وعندما سأله فريد عن سبب ذلك قال له:

– "هناك مكان يجب أن أجده قبل أن يجده شخص قبلي"

– سأله نعيم قائلا "هل تعرف هذه الأرض"
– قال حيدرة "لا وإلا كنت جئت إليها منذ زمن ... ولكني أتوقع ما سيكون عليها"
في الصباح الباكر بدأ الشيخ عبد السلام ينظر من أعلى أسوار القلعة وكأنه يبحث عن شيء ما. قال أحمد الذي كان يحرس هناك له عندما رآه:
– "تعالى معي يا شيخ وجدت ما تبحث عنه"
خلف القلعة كان هناك بناء متهدم منفصل عنها بسورها الخلفي، نظر إليه الشيخ وقال: "لماذا ليس بداخل القلعة؟"
– قال أحمد "لم يكن للقلعة أسوار في البداية وهذا السور آخر سور بني فيها وقد فُصل البناء بواسطته عن القلعة غالبا بعد تهدمه"
– قال الشيخ "لماذا بني في هذا الموقع؟"
– قال أحمد "لا أعلم سوف نبحث عن أجوبة، المهم أن السجاجيد والسبحات التي وجدناها في قاعة القصر تدلّ على أن المسجد صار هناك بعد أن تدمر هذا المسجد".

استمرّ الوضع على ما هو عليه في القلعة مدة خمسة أيام، كانت كافية لتنظيف باقي المنازل والأغراض حيث وجدوا الكثير مما يمكن استعماله كالخناجر وأدوات صيد وغيرها. تم تقسيم الغرف بعد أن فرشت، وكذلك الأواني الضروري وجودها في كل شقة وغرفة، وتقسيم بعض المقتنيات التي عثروا عليها بين الركام. تم الاحتفاظ بباقي الأغراض كأدوات الصيد في غرفة مستقلة. أمّا المفاجأة والجائزة التي حصلوا عليها بعد تنظيف الرّكام، كانت جواهر ثمينة وأواني فضية وذهبية تم تقسيمها عليهم. خلال هذه الأيام الخمسة، كان منظر أتباع عمر لا يفرق عن عمال يعملون تحت إمرة الانتهازيين الذين

كانت ملابسهم جميلة وجديدة رغم غرابتها حتى أن قوت القلوب كانت تتعمد المرور أمام النساء والمشي خيلاء، لتريهم فخامة ملابسها وتتباهى بها ظنّا منها أنها وباقي الانتهازيين فقط من يمتلكون مثلها.

بعد أن تم تنظيف الملابس كلها وتوزيعها، حصل الكل على ملابس جميلة ونظيفة، وبعضها جديدة إذ كانت ما تزال في صناديق لم تفسد أو تتعفن. كانت الملابس من طراز قديم جدا بعضها مصنوعة من أثواب جيدة لكنها خشنة، والبعض الآخر من أثواب ناعمة، والبعض من حرير خالص ومن ديباج رفيع الصنع كالتي ارتدتها عاتكة ذات يوم. قالت لها غالية التي تفحصت ما ارتدته:

– "إنه حرير أصلي ليس كفستاني، وشالك ليس خشنا كأوشحتي. جناحك هو الذي لديه شرفة تطل على الساحة ربما اخترت جناحا كانت تسكنه أميرة".

لم تحسّ فقط أنها أميرة، بل أيضا أحسّت لأول مرة بإحساس جميل لم تعتد عليه، أحست كأنها تحلق عاليا في هذا الثوب الناعم الجميل ونعومة وشاحها تداعب خدها. ذلك الإحساس الذي تعذر عليها أن تحس به وقد تعودت على ملابس متواضعة كعيشتها الخشنة. لكن هذا الإحساس لم يدم طويلا، فهذه الملابس الفاخرة لا تليق بالأعباء الملقاة على عاتقها، اضطرت لإرجاعها إلى الصناديق وارتدت من ملابس أقل فخامة وجدوها في الجناحين المخربين كما فعل الباقون كعمر وأحمد ومروان وأدهم.

كانت الملابس من الطراز القديم جدّا، عندما ارتدوها أعطتهم انطباعا أنهم شعوب من القرون الوسطى. الأحذية معظمها من الجلد الخالص تتضمن جوارب سميكة تساعدهم على صعود الجبل وبلاغي

متينة يلبسونها في القلعة، وكل اتبع النظامَ الذي يناسبه. كان منظرهم غريبا عنهم، حتى أن مروان بعد أن ارتدى بنطالا وقميصا بدا شبيها كما قالت سعاد عندما رأته، بصور جحا في قصص الأطفال، واشتاق لأخذ صورة بهاتفه المحمول ليخلدها للذكرى. لكن هيهات، من يحضره له أو من يعيده إلى ماضيه. لم يكن حال الباقين أفضل بالملابس الجديدة، بدأت النسوة تتعثرن في ملابسهن الطويلة حتى فكرن في تقصيرها قليلا لكنهم لم يقدروا على ذلك لشح الملابس، وافتقدن الأحذية ذات الكعوب العالية التي كانت ستساعدهم على المشي بها. اقتصرت ملابس الكثيرات كعاتكة ولبنى وفيروز على سراويل وجلابيب قصيرة ذات أكمام ضيقة قليلا سهلت عليهم الحركة والعمل. بين عقلية حاضرهم التي أتوا بها، وبين ظروف العيش التي فرضت عليهم صاروا كسكان من زمان خيالي تداخل فيه الماضي والحاضر فيما بينهما كما قال حيدرة.

أمّا في مجتمع المدللين، كما لقّبتهم فيروز الفضولية، فقد اغتبط الكثيرون منهم لكونهم لم يتكبدوا نفس العناء في التنظيف. كانت منازلهم تحتوي على الغبار وبعض الحشرات الصغيرة التي سهُل عليهم التخلص منها.

غادرت غالية المتعالية، والتي لقبت بهذا لتباهيها المستمر، شقتَها أخيرا بعد أن اطمأَنت أن لا أحد سيأخذها منها. دخلت القصر لأول مرة وذهلت لما فيه بالمقارنة بما في الشقق. لزركشة أعمدته وحيطانه وروعة زينته، لأوانيه الفخارية والنحاسية والفضية وأثاثه الساحر الثمين. سلكت طرقها بدقة كما وصفتها لها قوت القلوب مباشرة نحو جناح عمر. فاجأتها عاتكة وهي تحاول دخول غرفتها فاستوقفتها قائلة:

– "ما الذي أحضرك إلى هنا؟"
– قالت "هذا المكان ليس ملكك ومن حقي أن أدخله"
– قالت عاتكة "إذن، من حقي أخذ ما أريد من بيتك فهو ليس ملكك"
– قالت وهي تنظر حولها "كنت أمزح معك طبعا ... تمنيت لو حظيت بمثل حظك"
– قالت عاتكة "هناك من يتمنى حظك أيضا وبيتك جميل ومريح "
– ردّت عليها قائلة " طبعا بيتي مريح بالنسبة لك، كلام طبيعي أن يخرج من فم خادمة ... أنا أعرف ماضيك".

صُدمت عاتكة التي لم تحك لأحد غير أسماء ماضيها من معرفة غالية به، وغادرت هذه الأخيرة دون أن تخبر عاتكة من أين عرفت بأنها كانت خادمة. تركتها تكلم نفسها وتراجع ماضيها لعلها تتذكر غالية أو تتذكر إن كانت قد باحت لأحد غير أسماء به. أخبرتها أسماء بأنها لم تتفوه بكلمة عن أسرار عاتكة أو ماضيها لأحد. ذلك الماضي الذي أخفته حتى عن زوجها الذي لا يعرف عنها إلا أنها مُلمّة بالأعشاب وحاصلة على الباكالوريا.

منذ ذلك اليوم وهي تنزعج كلّما رأت غالية تنظر إليها وترى ماضيها المرّ في عينيها ونظراتها المستفزة. أفسدت غالية فرحة عاتكة بانتهاء جزء كبير من العمل المتراكم الذي ألقي على عاتقها هي والباقين.

بعد كل هذا الكد والتعب وبعد أن استقر الوضع قليلا، بدأ الكل ينتبه لأمر وجدوه غريبا، هو أن أعراض المرض تراجعت على غير المتوقع. خمنوا أن هذا بسبب تغير الجو وظروف العيش ولا يعني أن المرض اختفى. وهكذا بين الأسرار التي تلوح حول هذا المكان

وبين ماضيهم المثقل بالأسرار بدأ المنبوذون بالاستقرار على هذه الأرض المجهولة.

هل هؤلاء القتلة هم أهلها؟

غرق المنبوذون شيئا فشيئا في حياتهم الجديدة والغريبة، كانوا يهربون من الإجابة عن الأسئلة الكثيرة التي حولهم. في انتظار الموت، صارت محاولة إيجاد القوت وتوفير الأمان هو هاجس الكثيرين، بينما التمتع بحياة مرفهة ومرتاحة في ما تبقى من أيام هو هاجس البعض الآخر، وبين هذا وذاك ما تزال هذه الأرض تخفي الكثير من الأسرار التي ستجعلهم يتمنون لو ماتوا منذ زمن قبل اكتشافها.

التقط مروان قطعة حجر صغيرة بالقرب من أنقاض المسجد المهدم خلف القصر وضغط عليها بقوة فتحولت بين يديه إلى تراب وقطع صغيرة. قال له أدهم بينما ينفض يديه من التراب بعد أن كان يتفقد أنقاض بناء بقربه:

– "رمل وطين، طبيعي أن لا يصمد أمام موجة مد"

– قال مروان "إنه أول بناء بني في هذا المكان ويبدو أنهم شيّدوه كي يقطنوا به ريثما يستقرون"

ابتعد أدهم بخطوات عن البناء وأخذ ينظر يمنة ويسرة ثم قال:

– "أول بناء كنّا سنبنيه سيكون بيوتا للنساء والأطفال وبعدها بيتا أو بيوتا لنا، ليس مسجدا فالأرض كلها مسجد يمكننا الصلاة في أي مكان طاهر ريثما نبني واحدا"

– قال مروان بعد أن دقّق النظر في البناء "حتى ةلإن بني أولا ... لن يكون في قمة جبل ... يبدوا أنهم كانوا يسكنون في مكان ما على

السفح أو ربما على الشاطئ في أبنية من مواد استعملوها فيما بعد لذلك اختفت"

– قال أدهم "أو ربما سكنوا أعشاشا قرب المسجد وهدّوها فيما بعد!"

– قال مروان "ربما، لكن إن افترضنا أنهم وصلوا إلى هنا منذ زمن قريب أي منذ جاءت موجة المد، ولم يعيشوا هنا منذ الأزل متى بنوا القلعة؟"

– قال أدهم "علينا أن نحاول إيجاد أجوبة، وأيضا أن نقوم بالبحث داخل القلعة، ولكن عملنا في الحراسة والصيد سيؤخرنا قليلا"

– قال مروان "لا بأس سوف نتعاون وسنفعلها صديقي، سنعرف أين رحلوا أو اختفوا، سنكشف سرّ هذه الأرض إن عشنا زمنا كافيا".

استمر مروان وأدهم في البحث والاستكشاف كعالمين شغوفين بالعلم وخباياه. بعد يومين عرفا أن السور المقابل للبحر قد أعيد بناءه بعد أن انهياره بسبب الموجة الكبيرة. إذن لماذا لم يبنوا مسجدا بدلاً من الذي دمّر؟ ولماذا أغلقوا ممرا كان يربط القلعة بالمسجد القديم وفصلوه عن القلعة؟

تساؤلات عديدة طرحت نفسها عليهما دون أن يجدا لها أجوبة شافية.

وقف عمّال الحقل الثلاثة مُؤنِس وعامر صاحب الخال ولبنى، أمام مشهد تركهم مذهولين وسعداء في نفس الوقت. حوض كبير من الماء ليس ببعيد عن الحقل وممتلئ عن آخره، مغطى بألواح خشبية بها فتحة صغيرة. قالت لبنى وهي ما تزال تحدق بالحوض:

– "لا بد أننا نحلم، هل هذا ماء مطر عذب؟"

– قال مُؤنِس "لا يصلح للشرب ... ربما يكون ملوثا"

– قال عامر "ولككنه يصصلح لللسس قي"
– قالت لبنى "ربما ... رغم أنّنا لم نجد بعد ما كُلفنا بإيجاده كمقابر أو غيرها، ولكن هذا كنز لم نكن نتوقع أن نقع عليه عندما بدأنا البحث"
– قال مُؤنِس "ما حاجتنا بالمقابر أو آثار تدلنا عن أصحاب القلعة يكفينا آثارهم هذه ... لا أعرف لماذا طلب منّا عمر ذلك"
– قال عامر "سسسنجدهم يوما ما"
– قالت لبنى "أمامنا أيام كثيرة وكافية للبحث، فنحن لا نعمل في الظهيرة في الحقل ويمكننا استغلال ذلك الوقت، دعونا نخبر عاتكة بما وجدناه".

فرحت عاتكة بإيجادهم هذا الحوض وشكرتهم لأنها أخيرا تستطيع سقي الحقل وتوسعته بمساعدة منهم ومن فيروز الفضولية. أمّا ما أثار فضولهم أكثر كان أطلال بناء لم يكتمل وجدوه على بعد أمتار من القلعة قد غطته النباتات والأشجار وأيضا آثار طريق كانت ستربط هذا البناء بالقلعة. أمضى مروان وأدهم وعامر ثلاثة أيام يعملون عليه في أوقات فراغهم ليعرفوا ما كان هذا البناء عليه. أدركوا أنه كان مسجدا قد اكتمل أساسه وبدأ العمل على صومعته وأسواره لكن لسبب ما قد أجِّل هذا المشروع لأجل غير مسمى. غطّت السنين ملامحه وطمرته داخل حشائش وأعشاب وخلف أشجار حولته إلى أطلال. لكن لا وقت لدى المنبوذين للبحث عن إجابة لكل سؤال يقضّ مضجعهم عن ماضي هذه الأرض فالطعام والماء أهم ما يجب أن يفكروا فيه.

ألقيت مسؤولية جلب الطعام البروتيني على عاتق الصيادين مما جعل هذا الأمر هاجسهم الأول.

ففي اليوم السابع وصل طاهر إلى المرة المئة من محاولاته إيجاد طريقة لصيد السمك خارج الحاجز الصخري الصغير الذي يصطادون داخله. لم يكن وحده من يحاول، بل معظم الصيادين الذين يأملون أن يرحموا بطونهم من الطعام الوحيد المتوفر للناجين المنبوذين منذ أن وصلوا إلى هذا المكان، الصدفيات القاطنة بين الصخور والسمك الصغير الذي يحجز هناك، وحساء الخضروات والنباتات الذي تعده عاتكة.

مع أجسادهم الضعيفة وقواهم الخائرة، وعدم توفرهم على أدوات تصلح للصيد لا من البرّ ولا من البحر فور وصولهم، كانوا راضين بهذا الطعام الذي حصلوا عليه بسهولة ودون تعب واعتبروه نعمة شكروا الله عليها. لكن بعد أن شبعت البطون وتحركت العقول كان عليهم البدء بالعمل كي يجدوا بدائل أخرى تقيهم الجوع والحاجة.

في وسط ساعات العمل الطويلة كان الكثير من المنبوذين يعودون بذكرياتهم إلى الوراء بين حنين لماضي جميل أو مؤلم. استرجع طاهر الذهبي ذكرياته على إحدى الشواطئ برفقة والدته، حيث كان يثابر لينجح في إحضار سمكة لتشويها على المشواة التي أوقدت نارها سلفا. كان كلما حاول الخروج خالي الوفاض تناديه قائلة:

– "طاهر أنا في انتظارك إني جائعة ولن آكل إلا السمكة التي ستصطادها وإلا لن آكل شيئا حتى صباح الغد".

لم تكن أمامه فرصة للاستسلام، فأمّه بانتظاره والسمك أمام عينيه، وبينما هو كذلك يركز على ما طلبته والدته غرز الرمح الخشبي داخل الماء ونجح أخيرا في اصطياد أول سمكة. رفع الرمح ونظر نحو

والدته التي كانت تنتظره على الشاطئ، توجه نحوها بينما تبتسمت له قائلة:

– "رائع طاهر أنت دائما ماهر"

لم تكن والدته هذه المرة هي التي تنتظره وتشجعه، بل الأستاذ هارون على شاطئ الأرض المجهولة. لكنه كان سعيدا لاستعادته ذكرياته مع والدته، الشخص الأكثر أهمية في حياته والتي لطالما منحته الطاقة والقوة ليتحدى الصعوبات. كما ساعدته ذكرياتها هذه المرة ليستعيد الثقة في نفسه ويمنح الناجين الأمل في الحصول على طعام أوفر بعد أن يُعلّم الباقين كيفية الصيد.

وهكذا كانت تعمل خلية النحل في القلعة وتولى كل منهم مهمة محددة. تكفل بعض العمال بجمع الحطب والبعض الآخر بجلب مياه البحر، والبعض بالطبخ، وآخرون بأعمال مختلفة كحياكة السلّات وغيرها.

بينما كان سكان الجهة الشرقية من الانتهازيين يرتاحون وينامون ويصلهم نصيبهم من الطعام والماء.

استغربت فيروز الفضولية إتعاب عاتكة نفسها لتوسيع الحقل بينما يستفيد منه أشخاص لا يكلّفون أنفسهم عناء القيام بشيء. بدأت تلومها وتقول:

– "لا يمكن أن يستمر هذا الوضع، نحن نعمل بجدّ وهم مرتاحون، لماذا ما زلنا نعطيهم الطعام ونوسع الحقل كي نطعمهم حتى صاروا يلقبوننا عمّالا".

استمر لومها طوال الصباح في أثناء عملها وعاتكة في الحقل، بينما لم تتفوه عاتكة بكلمة وظلت تبتسم. ولم تهدأ فيروز الفضولية إلا بعد أن أخبرتها بأن عمر يأمل أن يتغيروا بعد أن تهدئ نفوسهم من

روع ما رأوه وما عانوا منه، وأن هذا الوضع لن يستمر إلى الأبد إن ظلّوا أحياء.

مع البذل والعطاء الذي أظهره عمر والباقون نجحت خطته في استدراج بعض الانتهازيين "المدلّلون". بدأ الكثير منهم يفكرون في مساعدة جيرانهم ومشاركتهم متاعهم لكن حيدرة كان لهم بالمرصاد ودأب على تحريضهم على عدم فعل ذلك. كان يحرضهم قائلا:

– "المرض يفتك بنا ولا يغرنكم كون أعراضه قلّت فهذا حدث بسبب ارتفاع نسبة الأدرينالين وقريبا سنعود كما كنّا ومن الخير لنا أن نستمتع بما تبقى من أيام لنا".

أمّا من لم يقنعهم هراؤُه هذا، فقد حرص على تحريضهم ضد عمر ونيته استغلالهم وطردهم، لأنّه حسب قوله وأحمد يملكان القلعة ولا يجب أن يقدموا تنازلات عن الميزة الوحيدة التي يمتلكونها، وهي رغد العيش قبل أن يضطروا للمغادرة. استسلم المدللون لكلماته المنطقية وانشغلوا بما وجدوه من وسائل راحة في غرفهم وبالاستجمام على الشاطئ الجميل. فالعمل المرهق الوحيد الذي يقومون به هو إزالة الغبار من شققهم وغسل ملابسهم والتقاط الصدفيات وإعطائها للسيدة رملة لطبخها. مع مرور الوقت وتحسن صحتهم أدركوا أن المرض لم يعد يهدد حياتهم، ولكنهم لم يحاولوا البحث عن بدائل للطعام معتقدين أن ما لديهم سيكفيهم إلى الأبد.

كأنّهم لم يأتوا إلى هنا بعد أن انقلبت حياتهم رأسا على عقب، وكأنهم ضمنوا عدم تقلب الأيام من جديد. تلك الأيام التي أمضوا منها القليل هنا لن تبقى دوما مبتسمة لهم مع الأسرار التي تخفيها هذه الأرض.

في الليلة الثامنة من دخولهم القلعة، بينما أحمد ضياء الدين يقوم بحراسة الجهة الشرقية المطلة على الغابة، لمح ضوءا يشع من بعيد وسط الظلام الحالك الذي يطغى على المكان. دقّق النظر ليحدد مكان ونوع الضوء لكنه سرعان ما اختفى. ظل يحدق بالغابة لعله يراه من جديد عندما اقترب منه الدكتور أكرم وألقى عليه التحية وقال:

– "سوف أؤنسك قليلا إن سمحت"

– رد عليه أحمد بعد أن نظر إليه نظرة عابرة قائلا "شكرا لك، هذا لطف منك"، ثم عاد من جديد يراقب الغابة باحثا عن بصيص آخر.

– قال له الدكتور أكرم وهو مبتسم "أريد أن أسألك سؤالا يا بني ... آآآه ... لماذا لا تعصي لعمر أمرا ولا ترفض له طلبا؟"

– ردّ أحمد قائلا بعد أن التفت نحوه مؤجلا مراقبته ومحتفظا بشكوكه حول ما رآه لنفسه قائلا "لأنه صديقي وأعتبره كأخ كبير، خِبرته في الحياة أكبرُ من خبرتي وأثق برأيه، كما أنه وبدون سابق معرفة لي به ... أنقذ حياتي".

صمت الدكتور أكرم للحظات وقال من جديد

– "هل تعتقد أننا سوف نبقى هنا طويلا، ألا تستغرب كوننا لم نعثر على أثر لبشر على هذه الأرض سوى المتاع وهذا الصرح"

– ردّ أحمد قائلا "لا تستعجل، لو كان هناك شخص يعيش على هذه الأرض سيظهر عاجلا أم آجلا، علينا أن نفكر فيما هو أهم، البقاء على قيد الحياة".

مرّت ساعة وهما يتحدثان، أكرم يسأل وأحمد يجيب إجابات دقيقة، ثم رحل أكرم بعد أن وصل إلى طريق مسدود حين سأل أحمد عن حياته قبل المستشفى وتملص هذا الأخير من الإجابة. فذلك سره

الكبير الذي لم يخبر به أحدا. بعد رحيل الدكتور أكرم جاء عمر، الذي انتهى من دوريته في مراقبة الجهة الغربية المطلّة على البحر وكان عليه أن يتفقد الباقين، وقال لأحمد:

– "برأيك لماذا لم يكملوا المسجد وركزوا على تقوية الأسوار"

– رد أحمد قائلا "أعتقد أنك أجبت بنفسك، ربما تعرضوا لمخاطر جعلتهم يغلقون القلعة على أنفسهم".

– قال عمر "أين رحلوا؟ ولماذا؟"

– قال أحمد "علينا أن نعرف خوفا من أن نتعرض لما تعرضوا له إن كان شرّا، وأيضا نستفيد مما استفادوا منه إن كان خيرا"

– قال عمر وهو ينظر نحو الغابة "ما رأيك بهذه الغابة الفسيحة الممتدة على مرمى البصر"

– "رأيي أنها تحمل الموت والحياة في نفس الوقت"

– "هل فعلا أنت مستعد للبحث عن الحياة ومواجهة الموت في هذه الغابة"

– قال مبتسما "كي نعيش بشكل أفضل علينا أن نغامر"

– قال عمر "إذن، فلنشدّ الرحال بعد أيام إن شاء الله"

– "إن شاء الله، ولديّ اقتراح حول الطريق الذي سنسلكه إن لم تكن خائفا من المغامرة"

– قال عمر "أي اقتراح؟"

– قال "سنتبع مصدر الضوء ... ولو كان فخا".

وهكذا قرر الصديقان أحمد وعمر أن يخوضا غمار أول رحلة استكشافية نحو الغابة، لعلّهم يعثرون على إجابات لأسئلتهم والتي ستصبح كابوسا سيدخلونه بأنفسهم.

بالإضافة إلى الحراسة كان على أحمد أن يطالع الكتب التي وجدوها بالقصر. كلها مكتوبة بخط صعب القراءة لم يكن غير أحمد والشيخين يقدران على قراءته بسلاسة. لكنه لم يجد منها ما يدلّه على سكان هذا المكان، فكلّها كتب دين وبحوث وكتب علوم ... وغيرها، على ما بدا لهم أنها كتبت منذ مئات السنين، قديمةٌ مثلها مثل ملابسهم والقلعة وغيرها من الأشياء. لم ينس أحمد الوميض الذي رآه وكان متلهفا لخوض مغامرة دخول الغابة لعلّه يجد أجوبة عن تساؤلاته والتي هي تساؤلات الكل.

في الغد ذهب أحمد إلى مروان وأدهم اللذان كانا يتفحصان القصر وسألهما قائلا:

– "أتظنان أن الموجة هي سبب رحيل السكان؟"

– قال أدهم "هذا مرجح ... تركوا كل ما فيها ورحلوا ببساطة هاربين"

– قال مروان "لكن هذا لا يفسر الأبواب التي وجدناها مغلقة والغرف في الجهة اليسرى التي كانت مرتبة بعكس حال الغرف التي يرحل منها أهلها على عجل، ألم تجد شيئا في الكتب؟"

– قال أحمد "لا ... يبدو أنّهم اختفوا فحسب ... هذا غريب"

– قال مروان "لا نستطيع أن نجزم فما زلنا نبحث، لكن في التاريخ حدث ما هو أغرب من هذا"

ضحك أدهم ضحكة لا تخلوا من حزن خفيف وقال:

– "ولماذا تتكلم عن التاريخ، ألم نترك أيضا منازلنا على حالها وربما خلت قرى من أهلها بسبب هذا الوباء دون أن يحملوا معهم شيئا. غادرنا بعد أن أغلقنا الأبواب وتركنا كل شيء مُرتبا معتقدين أننا سنعود"

– قال أحمد "أيا كان ما حدث علينا معرفته لاتخاذ الحيطة والحذر"
– قال أدهم "لذلك سنشد الرحال غدا"
– قال مروان "بل قل سننتحر غدا".

لم يُفصح أحمد عن ما يدور في خَلَده إلا لعمر، الذي علم وجهته وعلم عن البصيص الذي رآه والذي يمكن أن يكون مصدره مكان سكنى أصحاب القلعة. عرض عمر على حيدرة أمر دخول الغابة كما فعل مع الكثيرين ممن يرى فيهم بأسا وجلدا، لكن حيدرة أجابه بجملة واحدة أنهت محاولاته معه:

– "ليتني أقدر يا صديقي ولكني أقطن جناحا كبيرا والمطامع حوله كثيرة وأخشى إن رحلت معك أن ينهبه أحد".

جهّز عمر وأحمد ومروان وأدهم وبعض الرجال أنفسهم وحملوا بعض السلات وتوجهوا نحو الغابة. قال فريد لحيدرة بينما كانا يراقبان البعثة تخرج:

– "ربما يجدون المكان الذي تبحث عنه "
– قال حيدرة "حينها سوف آخذه منهم لأنه من حقّي"

استغرب فريد كلامه لكنه يئس من أن يعرف ما يقصده منه وما هو السر الذي يعرفه حيدرة عن هذه الأرض.

كان كل شيء طبيعيا في هذه الغابة التي لا تختلف كثيرا عن الغابات في البرامج الثقافية التي شاهدوها بالتلفاز أو التي زاروها، رغم اختلاف حجم الأشجار وشكلها قليلا عن ما عهدوه، لكنهم لم يدركوا أنهم سيعيشون فيلم رعب لا برنامجا. فبعد أن توغلوا قليلا بين أشجارها المتكاثفة أحيانا والمتفرقة حينا، وجدوا شيئا لم يكن متوقعا، مشتلا صغيرا زرعت فيه البطاطس والطماطم وثلاث شجرات ليمون وأخرى رمّان.

قطفوا ما يحتاجونه منها وما يستطيعون حمله وتابعوا طريقهم إلى الداخل. بعد ما يقارب الساعتين من المشي المتواصل، وقعت أعينهم على شيء من أجمل ما رأوه على هذه الأرض. بيت لم يبنه بشر، مشيد كما العديد من الصروح التي تعتبر من عجائب الطبيعة وغرائبها. سقفه وجدرانه من جذوع وأغصان أشجار منحنية وكأنها رتبت كي تكون سقفا صلبا وجدرانا متينة لبيت في الطبيعة مساحته تزيد عن ثمانين مترا. جذبهم هذا المنظر الساحر قبل أن يستبينوا ما يخفي بداخله وخلفه من حقيقة مرعبة تظهر صورة عن هذه الأرض التي حلّوا بها. كان بالبيت بقايا عظام لا يعرف إن كانت لحيوانات أو بشر من كثرة تشوهها، وبعض أركانه فيها بقايا لحم متعفن ينخر فيه الدود ويحوم حوله الذباب. أما خلف ذلك البناء كان هناك منظر أكثر رعبا ووضوحا من سابقه، مجموعة من الجماجم معلقة على الأشجار وتحتها كومة عظام بشرية بدا وكأنها سقطت من الأشجار بعد أن اختفى اللحم منها وانفصلت عن رؤوسها التي بقيت معلقة.

كان مظهر بعضها يوحي بأنها قديمة جدا وتعود لعشرات السنين، والبعض الآخر لم يمض عليه إلا أشهرٍ أو ربما سنة.

تباطأت دقّات قلوبهم وهم يرون هذا المنظر المرعب، وتوقف الزمن بهم لحظات قبل أن يستوعبوا أنهم وقعوا على مجزرة تراق فيها دماء البشر وينكل بهم. بدأت الأفكار المرعبة تدور في خُلدهم، لكن هدوء المكان طمأنهم قليلا وعادت دقات قلوبهم إلى سرعتها الطبيعية قبل أن تتسارع من جديد مع استيعابهم أنهم يمكن أن يكونوا مراقبين وأن الأشخاص الذين قتلوا هؤلاء قد وجدوهم وسيجعلونهم الضحية المقبلة. تأكدوا أنهم في مكان لم تصله الحضارة ولا القيم ولا

الأخلاق، وأن ساكنيه يتعاملون بوحشية من لا يعرف الرحمة وخرج عن بشريته إن كان أساسا بشريا. قال مُؤنِس كاسرا صمتهم المرتعد:
– "هذه ليست أفعال حيوانات"
– قال عمر "أجل الحيوانات لا تكبل ولا تعلق وتنكل بالجثث"
– قال أحمد "أيا كان القتلة فهم وحوش"
– قال أدهم "ولماذا لم نعثر على آثر للدببة أو غيرها من الحيوانات إلى الآن، رغم ظهروها خارج الغابة"
– قال مُؤنِس "لا أعلم، ولكن أخشى أنهم يراقبوننا ... وَهُم ليسوا حيوانات طبعا".

وقعت بقايا إحدى الجثث المعلقة أرضا تاركة أصدقائنا بين رعب وتأهب من قدوم شخص ما، وكان منظرها أكثر رعبا ممّا يمكن أن يتخيلوه لو لم يروها. لم يتمالك نديم نفسه، بل كان خائفا إلى درجة أنه فرَّ هاربا من مجزرة شيدت قرب بيت شجري يستجم فيه سفاحون ويستمتعون بآلام ضحاياهم ومعاناتهم. سيطر الخوف عليه وهو يركض مبتعدا وغير منتبه لموضع قدميه ولا مدرك أن الطريق التي يسلكها ليست التي أتوا منها. وقبل أن يختفي عن أنظار أصدقائه الذين سعوا لتهدئته، وقع في حفرة مطلقا صرخة يمكن أن يصل دويها للحيتان التي تقبع في أعماق المحيط. توجه أصدقائنا نحوه بحذر كي لا يصيبهم ما أصابه فوجدوه قد استقر في حفرة مزودة بأوتاد خشبية حادة وطويلة من أغصان الأشجار، يمكن أن تمزق أحشاء دبّ برّي قوي.

نزل عمر وأحمد وأدهم إلى الحفرة وتعاونوا على إخراج جثّته الممزقة مستعينين رغما عنهم بأرضية من الهياكل العظمية من الواضح أنها تعود لضحايا وقعوا في هذه الحفرة من قبل. سيطر الخوف على

الباقين رغم شجاعتهم المعهودة، وظلّوا يتلفتون يمنة ويسرة خوفا من هذه الوحوش. قال مروان للثلاثة:

– "أسرعوا ... أحس بأننا مراقبون"

– أجابه مُؤنِس قائلا "إننا فعلا مراقبون"

– ردّ عليه مروان مصدوما "أرجوك لا تقلْها في وجهي لازلت أريد أن أعيش وأتزوج من أحبها".

طلب عمر منهم أن يردموا الحفرة بعد خروجهم منها كي لا يقع فيها شخص آخر، وتُوارى هياكل الضحايا الذين ماتوا هنا. حاولوا ألا يشوهوا جثة نديم رغم رغبتهم الخروج في أسرع وقت وقرروا أن يأخذوها إلى القلعة ليقوموا بدفنها بطريقة لائقة.

عاد المغامرون إلى القلعة ومعهم الجثة الممزقة التي أثارت استغراب ورعب كل المنبوذين. وبعد أن حكوا للسكان ما وجدوه هناك وما رأوه من أهوال تشيب لها الولدان، تم دفن نديم. وجه حيدرة لعمر اللوم قائل:

– "ما كان عليك اصطحاب نديم معك فأنت تعرف أنه جبان ويموت رعبا من أي شيء"

– ردّ عليه أحمد قائلا "لقد خرجنا من هنا على رؤوس الأشهاد، لماذا إذن لم تظهر ذكائك وتمنعه أو تأتي بدلا منه"

– قال مروان "لم نرغمه على المجيء لكنه من صمّم على هذا كي يحظى بنصيبه مما اعتقد أنّنا سنغنمه"

– قال أدهم "وقد حظي رحمه الله بأوفر حظ".

صمت حيدرة حينها ولكنّه وصديقيه شكّكوا في كلام عمر والباقين وحرّضوا حتى بعضا من الذين يثقون بهم ضدهم، مما دفع عشرة رجال بقيادة حيدرة بينهم عامر صاحب الخال إلى الذهاب

والتأكد مما قاله الرجال. حذرهم عمر والباقون وحاولوا ردعهم لكنهم لم ينصتوا إليهم، بل وطالبوا بأن لا يخرج أي شخص من القلعة في أثناء غيابهم، حتى أن بعض أتباع حيدرة –كما أسماهم أدهم– أغلقوا البوابة بعد أن تأكدوا من دخول الجميع بعد ذهاب حيدرة وبعثته.
قال مُؤنِس لعمر وهو يشاهدهم يغادرون:
– "لِمَ لَمَ يقتلونا نحن أيضا في تلك المجزرة؟ لم نعيش بأمان هنا إن كانوا همجا يقتلون كل من هبّ ودبَّ؟"
– ردّ عليه عمر قائلا "ربما لديهم طقوسهم في القتل أو لا يقتلون أيا كان"
– قال مروان وهو ينظر نحو البوابة "أتمنى أن يعود هؤلاء سالمين"
– قال أدهم "هل أنت جاد بالدعاء لهم بعد أن اتهمونا بالكذب"
– قالت سعاد "منهم من لم يشكك، بل ذهب ليتأكد أو لسبب آخر كعامر، ثم أنهم منّا وليسوا أعداء".
انضمّ بسام في آخر لحظة لبعثة حيدرة وفي الطريق دنا منه وقال:
– "أنا لا أشك في صدقهم، لكني لا أريد أن أتركك وحدك فأنت من علينا الشك فيه يا سيد حيدرة"
– ردّ عليه حيدرة قائلا " لم أعرف أنك صرت من أتباع عمر"
– أجاب بسام بعد أن ابتسم "أنا لا أتبع أحدا، أنا سيد نفسي وتابع نفسي ولن أترك أيا منكم يحاول السيطرة علي أو التدخل في شؤوني، وهذه الغابة لا تخيفني بقدر ما تخيفك".
ابتسم بمكر وتراجع تاركا حيدرة غارقا في غيظه بينما حل محله فريد قائلا:
– "هل ستتركه يفسد خططك ويكدر عيشك؟"

– أجاب حيدرة بهدوء "دعه الآن سوف يصبح قريبا كالذئب المنبوذ من القطيع، وحينها إما سوف يموت، أو سوف يخضع ولن يكون أمامه خيار آخر".

بعد وصلوهم إلى المكان المشهود وجدوا ما هو أكثر مما وُصف لهم، وجدوا مجموعة من الجماجم مرصوصة على شكل هرم وقربها جثة نديم في وضعية الركوع. ارتاعوا مما رأوه وتأكدوا أن الشخص أو الأشخاص الذين قاموا بهذا الفعل يراقبونهم عن قرب واستطاعوا إخراج الجثة الحديثة الدفن وحملها بهذه السرعة ودون أن ينتبه إليهم أحد. حمل عامر وبعض الرجال الجثة من جديد وقاموا بإرجاعها إلى القبر آملين أن تبقى هناك هذه المرة.

بعد أن عادوا إلى القلعة أحسوا أن الحياة قد عادت إليهم مرة أخرى بعد أن غادرتهم أرواحهم طوال الوقت الذي استغرقوه من الغابة وهم ينتظرون الموت في كل لحظة. سرد عبد العزيز على سكان القلعة ما رأوه في أثناء رحلتهم هذه، وعن جثة نديم التي وجدوها هناك رغم أنه تم دفنها قرب القلعة. دنا مروان من مؤنس وقال:

– "كنت أظن أنك تمزح عندما أخبرتني أننا مراقبون لكنك كنت جادا، كيف عرفت بهذا؟"

– أجابه مُؤنِس: "أستطيع إدراك هذا كما تستطيع إدراك أذواق الطعام".

أمّا عامر فقد دنا من أحمد وحنى رأسه عندما وقف أمامه وقال له:

– "أأأنا لم أشك في صصدقك أحمد ..."

– قال له "تغامر بحياتك فقط كي تُظهر لها شجاعتك ... أنت مجنون بها، حبها سوف يقتلك يوما"

– قال عامر "عــلي أأن أكْكُون ببطلا ككي ألفت نظرها، أعرف أنك تففهمني ولو ككنت مككاني لفعلت أكثر مما أففععل".

أكّدت هذه الحادثة لجميع المنبوذين أن هناك أشخاصا آخرين يعيشون على هذه الأرض لا يحبون أن يكون بينهم غريب يعتدي على أرضهم، وأن ما حدث مجرد تحذير بعدم الاقتراب من الغابة. قرر أهل القلعة أن يغلق البابُ بعد الغروب مباشرة ولا يغادر أي شخص بعدها، وأن لا يخرج أي شخص وحده ولو بالنهار. منذ ذلك الحين والغابة تشكل كابوسا لهم حيث قرر الكل عدم الاقتراب منها كليا آملين أن يكون هذا كاف لإبعاد شر هؤلاء القتلة المحترفين.

بدأ أهل القلعة وخصوصا سكان الجهة المخربة – العمال – يقومون بدوريات حراسة نهارية أيضا على أسوارها. وبقيت أسئلة تطرح نفسها بقوة على الجميع: هل هؤلاء القتلة والقتلى هم أصحاب القلعة؟ هل هؤلاء الوحوش هم من بنى هذا الصرح الجميل واستعمل هذه الآلات المتطورة؟ هل هؤلاء القتلة هم من فكر في بناء مسجد بعيد عن موجات المد كي يحموه من الدمار؟ هل هؤلاء القتلة من كانوا يقرؤون كتب العلوم والأدب ويلبسون أبهى الحلل ويزرعون ويحصدون كي يعيشوا؟ أم هؤلاء هم القتلى الذين قضي عليهم وأخفيت جثثهم وأبقي على آثارهم كهذه القلعة لسبب ما؟ هل هؤلاء هم أهلها؟

لماذا تعمدوا قتلهم؟

كأن العقول نسيت أو تناست تلك المجزرة، فقد تابع المنبوذون خاصة العمال حياتهم وكأن لا شيء حدث. كأنهم لم يدخلوا الغابة يوما ولا رأوا جثثا ولا هياكل ولا كأنها موجودة من الأساس. فكما قال أحمد لمروان وهو يحاول إثارة الموضوع معه:
– "لا ينجي حذر من قدر، فلم سنوقف حياتنا على شيء ليس بأيدينا، سنشدد الحراسة ونحذر ونعيش حتى يصل أجلنا".
وهكذا لم يدخل أحد للغابة ولا فكر فيما تحتوي عليه وكأنها اختفت من الوجود، إلا من رعشة قلوبهم التي لم تفارقهم مدة طويلة.

في اليوم الحادي عشر من إقامتهم في القلعة، بدأت الأمور تستقر، وبات كلّ منهم منشغلا بأداء عمله ومنكبا على القيام بما يجيده، أو تعلم ما يفيده. فالعمل كما قال إبراهيم هو ما يربطهم بالحياة ويجعلهم ينسون أنهم موتى موبوؤون تخلص العالم منهم ليبقى بأمان. شرع الصيادون بمساعدة من طاهر وأدهم وهارون في بناء قارب يصلح للصيد، فقد رأوا أنهم كلما أبكروا بهذا كلما ضمنوا كميات أكبر وأكثر تنوعا من الأسماك. أما بعض المدللين فقد كانوا يتفرجون عليهم ويعلقون على كل ما يفعلونه ويعطونهم نصائح ويتباهون بمعارفهم وذكائهم دون أن يتكبدوا عناء العمل بها.

بدأت أعراض المرض تتراجع بوثيرة أقل عند المدللين ورجّحت أسماء أن هذا ربما بسبب قلة العمل، لكنهم لم يقتنعوا بهذا وفضلوا الراحة متحجّجين بالمرض. فالعمل بنظرهم لا جدوى منه وقد خلّفوا كل ما عملوا لأجله من قبل وراءهم، فما الفائدة من البناء والزرع وسيتركون كل شيء من جديد ويرحلون. في أثناء وقوف السيد براح مسعود لمشاهدة محاولة بناء القارب بدأ يخبرهم أن عليهم بناء القارب بشكل غير منبسط حتى تحمله الأمواج، وأن عليهم صقل الأخشاب جيدا حتى تصبح ملساء ولا تجرح من يستعملها. نظر أدهم إليه بغضب وهو يقول:

– "سيد مسعود، من السهل أن تتكلم ولا تعمل، ومن السهل أن تلقي الأوامر ولا تعرف إن كان بالإمكان تنفيذها أم لا".

– أضاف مروان قائلا: "لا جدوى من الحديث معه لا يقدّر قيمة العمل إلا من يعمله ويحتاجه".

– ردّ السيد مسعود عليهما قائلا "الطعام سهل ووفير بين الصخور وقريبا سوف يأتي من يأخذنا من هنا ويعيدنا إلى الحضارة بعد أن يكتشفوا أننا لا نزال أحياء، فلا بدّ أن المرض اختفى وبدؤوا يبحثون عن ناجين في كل بقاع الأرض".

همّ طاهر بالرد عليه ولكن أدهم استوقفه قائلا:

– "دعه، فهو لم يفهم بعد أن العالم تغير عن ما عهدناه".

كان بعض المدللين يغادرون القلعة باكرا للاستجمام على الشاطئ موهمين أنفسهم وغيرهم أنهم يقومون بالمراقبة والحراسة، أمّا بعضهم فقد كان يعمل قليلا حتى لا يعتبر متواكلا، كرُبى ابنة مسعود التي لم تنفك تجادل والدها في ضرورة إبقاء الود مع جيرانهم لأنهم سيحتاجونهم يوما ما. رُبى التي كانت قد تناست ألمها منذ وقت طويل

وبدأت تتأقلم مع وضعها الجديد منذ كانت في المستشفى الفرعي، قرّرت أن تبقي الود مع الكل ريثما تتبين من منهم يمكنها الاعتماد عليه.

لم تكن فكرة العودة إلى الديار والحضارة والأهل تمنع أصدقاءنا العمال من العمل. منهم من يحب أن يموت وهو يعمل ويكد كطاهر الذي كان الأفضل في مختلف الورِش، ومنهم من يرى أنه مضطر لهذا كي يضمن طعاما أفضل ويشفى بسرعة من مرضه وإلا لن يعودوا أبدا إلى ديارهم أحياء، كعامر. أما الكثيرون فقد كانوا يؤمنون أن العالم الذي تركوه خلفهم لن يبقى كما كان عليه بل سيصبح أسوء، وأنهم محظوظون بإيجادهم مكانا يؤويهم بعيدا عن الفوضى التي تركوها على وشك أن تبدأ بسبب الوباء. في ذلك اليوم، اليوم الحادي عشر، كانت عاتكة تعمل بالمشتل عندما أتى إليها عمر ليكلمها. منظر غريب لم يعتد عليه أحد، فمنذ وصولهم إلى القلعة لم يكلمها على انفراد أمام الملأ. رحلت الصيدلية أسماء تاركة المكان للحبيبين ليتبادلا أطراف الحديث بحرية. استهل كلامه قائلا:

– "لقد اقترح مروان كتابة كلمة النجدة على الشاطئ حتى تظهر لطائرة ما ربما يحضر إلى هنا من يعيدنا بعد تراجع المرض، فلا بد أن العالم بدأ يتحسن بما أن المرض يختفي"

– أجابت "هذا جيد أتمنى أن يحدث هذا فعلا ونعود من جديد".

قال لها مواسيا بعد أن رأى عينيها قد اغرورقت بالدموع:

– "أعدك بأننا سنعود يوما"

رفعت عينيها مبتسمة وقبل أن تنطق بكلمة نادتها السيدة رملة لتساعدها في اختيار التوابل المناسبة للطهو والتي أحضرها مُؤنِس من أطراف الغابة. بقي عمر وحده بعد مغادرتها وقد حاول سرقة لحظات

من أوقات العمل كي يرسم البسمة في وجه زوجته، ولكنه بدلاً من ذلك رأى دمعها. فقد عمل بنصيحة الشيخ عبد السلام الذي قال له أن شائعات بدأت تنتشر بين الناجين حول طلاقه من عاتكة، وأنّ هذا سبب حزنها وعليه إيقافها.

وبينما هو كذلك فوجئ بصوت مروان يقول: "أنا أحسدك يا صديقي"

– أجابه عمر مبتسما "لماذا؟ لأني لا أكلم زوجتي أكثر من لحظات وأرتاح منها باقي الوقت؟"

– "هذا الكلام يقوله شخص جرب الزواج وتعب منه أما أنا أحسدك لأن حبيبتك تحبك، وهي بقربك، أما العبد الفقير لله الذي أمامك فيتقرب من حبيبته ببطء السلحفاة، وبعد أن ارتديت هذه الملابس لا أعرف كيف أقنعها أني كنت أبدو وسيما بملابس عصرية ونظارات سوداء وأنسيها جحا الذي أمامها"

– ضحك عمر وقال له "أنت لن تتغير، تمزح في أوقات الجد أيضا ... هيا، لنعد إلى العمل".

وبينما الكل منشغل بعمله إذ سُمع صراخ قادم من غرفة التقطير. كان صوت إبراهيم تلميذ الشيخ عبد السلام وهو ينادي قائلا:

– "نحتاج إلى طبيب".

ركضت عاتكة لتجد الأستاذ هارون مغشيا عليه وعبد المعطي وآخرون يحاولون إيقاظه. فحصته وطلبت منهم نقله إلى العيادة بعيدا عن الغبار. بدأ الاضطراب يعمّ القلعة خوفا من أن يكون أحد القوارض السّامة لسعه أو أن أعراض المرض بدأت تتطور وسوف يفتك بهم الوباء تدريجيا. في العيادة، سقته عاتكة شرابا منعشا شربه

ببطء وهو بين النوم واليقظة. فتح الأستاذ عينيه ليجد نفسه في العيادة محاطا بملائكة الرحمة، وأدرك ما حدث معه.
قالت له أسماء:
– "حمدا لله على سلامتك أستاذ هارون أنت محظوظ ... كاد قلبك يتوقف".
خارج العيادة كان الكل ينتظرون متوجسين وخائفين عليه وعلى أنفسهم، خرجت عاتكة إليهم وقالت:
– "لقد استفاق ... يحتاج إلى بعض الراحة، سوف أحضر له أعشابا مناسبة وطعاما صحيّا وسوف يكون بخير، لكن عليه تقليل ساعات العمل".

اطمأَنت قلوب المترقبين خارج العيادة لأن الإغماءة لم تكن بسبب خطر ما يتهددهم، بخلاف العمال الذين أدركوا أن كثرة العمل سوف تودي بحياتهم يوما ما. فلم يكن الوحيد الذي عليه التقليل من ساعات العمل، بل كل العمّال الذين يعملون في التقطير فقد كان عملهم متعبا للغاية. قرّر البعض الشروع في جمع الماء من قطرات الندى حتى يوفروا كمية أكبر ويوفروا بعض الجهد في تقطير ماء البحر. أمّا مروان فقد بدأ يبحث عن عمال أكثر ليساعدوا في التقطير ويتفرغ هو وأدهم للبحث عن بدائل خارج القلعة. عمر الذي كان يحمل همّ المنبوذين أكثر منهم. تطوع الدكتور أكرم بعد أن تعب من إيجاد عمل يناسبه مع تقدمه في السن وحمله مرضا مرهقا كفقر الدم. كان ذكيا إلى درجة أنه أصبح ماهرا أكثر من هارون في التقطير حتى أنه أثار إعجاب مروان الذي أحضر له وجبة الغذاء بنفسه ليشكره على إبداعه في العمل. بينما هما يتناولان الطعام قال الدكتور أكرم لمروان:

– "هل صار عمر حاكما لمجموعة المنبوذين؟ "
– ردّ مروان قائلا "لا، نحن لم نعين حاكما"
– ضحك هارون وقال "سامحني على غبائي فقد ظننت أنه صار كذلك عندما رأيتك تطيعه أنت وكثيرون"
– ضحك مروان ورد عليه "عندما سنختار حاكما لن نجد أفضل منه .. أؤكد لك".
حدّق أكرم بمروان للحظات بعد أن سمع هذه الكلمات ولم يتفوه بكلمة أخرى. بعد حادثة الدكتور هارون، استغلت أسماء فرصة وجود عاتكة وحدها في أثناء الغذاء وقالت لها:
– "كيف عرفت أنه سيكون دواء جيدا؟"
– قالت عاتكة "لأنني جربته بنفسي قبل يومين"
– قالت أسماء بنبرة غاضبة "هل جننت! لا يمكنك أن تجربي كل العقاقير الموجودة هنا ربما يكون بعضها سمّا أو حتى دواء قديما"
– "هذه الأدوية صنعت لتناسب أمراضا على هذه الأرض، ومن نباتات نمت عليها، إن كانت جيدة فلن أضيع فرصة معرفة مكوناتها وعلاج المرضى بها، كما أنني أعدت صنع بعضها عندما عرفت مكوناتها"
– "بعد أن تذوقتِها طبعا، لا أصدق تهورك لو كان كل الأطباء مثلك لانقرضوا منذ زمن"
– "لقد انقرضوا فعلا لذلك علينا أن نقوم بالمهمة الآن ونجد وسائل لمعالجة المرضى عبر البحث والاستكشاف والتجربة بما أن علمنا محدود وإمكانياتنا الطبية ضعيفة".
لم تكن عاتكة وحدها التي تغامر بحياتها في كل لحظة كي توفر راحة لمن حولها، بل أيضا مروان وأدهم وأحمد وعمر الذين قرروا أن

يخصصوا وقتا أطول للبحث عن مصدر عذب للمياه لاقتناعهم أن سكان هذا المكان وجدوا منبعا للماء الصالح للشرب في مكان قريب وكانوا يستعملونه. استهل أصدقاءنا البحث في أرجاء القلعة والجبل الذي بنيت عليه. بحثوا عن شيء يشبه علامة ما أو طريقا معبدة يكون أهل القلعة قد استعملوها لجلب الماء، أو حتى حشرات أو حيوانات تشق طريقها نحو مكان تروي فيه عطشها.

بحثوا لساعات في كل مكان وخلف كل حجر لكن دون جدوى. لذلك لم يبق أمامهم إلا أربعة حلول، أولاها البحث في الجهة الأخرى من الشاطئ، الجهة الشمالية، والثاني في الجهة المقابلة، والثالث حفر بئر في مكان مناسب، إذ كان جليا لهم أن هذه الأرض غنية بالمياه الجوفية، والرابع والأخطر هو دخول الغابة من جديد.

انقسموا إلى فريقين، فريق أحمد وأدهم، وفريق عمر ومروان، كاسرين الخوف والهواجس وعازمين على أن يجدوا سبل النجاة بأي ثمن. لم تكن عاتكة راضية على هذا القرار، خوفا من أن تفقد عمر للأبد إذا تعرضوا لهجوم من القتلة أو غيرهم، لكنه أصر على السفر ووعدها أنه سيرجع سالما. وما كادت الفرقتين تودعان بعضهما عند سفح الجبل حتى سمعوا صوتا ليس بغريب عنهم أجبرهم على الالتفات ورفع رؤوسهم ناظرين نحو السماء، كان صوت طائرات كالتي جلبتهم. كانت الطائرات توصل دفعة أخرى من المنبوذين إلى هذا المكان الغريب النائي.

كانوا مرتفعين بما يقارب الثلاثمائة متر وشرعوا في إلقاء المنبوذين، الذين كان معظمهم غير محظوظ لأن بعض الطائرات هذه المرة حلّقت فوق اليابسة مما جعل بقاء الملقى بهم أحياء ضربا من المستحيل. ركض الكثير من سكان القلعة إلى المكان وهم يحاولون

لفت انتباه الطيارين وإقناعهم برمي المرضى في الماء، لكن دون جدوى. سارع البعض من دوي السواعد القوية ومنهم المغامرون الأربعة في محاولة التقاط البعض، والبعض في إخراج من كان محظوظا وألقي به في الماء. حملت فيروز ولبنى بسرعة ملاءات كانت تغسل في الشاطئ وتم استعمالها لإنقاذ البعض.

لكن، تأخرُ المنقذين في الوصول وسرعة السقوط من الطائرات جعلت الكثير منهم يلقون حتفهم. كان المنظر مرعبا وفوق قدرة احتمال البعض، إذ أغمي على الكثيرين من هول ما رأوا، وأجهش البعض بالبكاء والصراخ وهم يرون الأرواح تزهق أمامهم دون أن يستطيعوا فعل شيء. كان مجموع الوافدين مئة شخص لم ينج منهم سوى ثلاثون منهم طفلان وشيخان، وأصيب عشرة منهم بإصابات بليغة وكسور.

كان لهذا الحادث وقع قوي على نفوس أصدقائنا، وأثار الكثير من الشكوك حول سبب عدم اكتراث الطيارين بصراخهم. لا يزال العالم الذي تركوه خلفهم ينهار ... بل، واختفت منه الكثير من القيم الجميلة، حتى أنّه لم يعد هناك من يكترث لأرواح الناس، بل ويتعمد إزهاقها.

في الوقت الذي يضحي فيه البعض بأرواحهم لبناء حياة جيدة وكريمة على هذه الأرض، هناك من لم يعد للبشر في نظره قيمة. لو أن الطيارين تكبّدوا عناء الاهتمام بمن ينادونهم، لَأنقذوا حياة الناس ولَوفّروا على الكثيرين عناء اتخاذ قرارات صعبة لمحاربة المرض، وأرسلوا

بعثة من الأطباء ليبحثوا عن سبب تراجع المرض عند أصدقائنا، ووجدوا العلاج. هل تعمّدوا رميهم هنا ليموتوا؟ هل تعمدوا التخلص منهم دون الاهتمام باحتمال اندثار المرض؟ هل الكثافة السكانية المرتفعة التي ضاقت بها الأرض جعلتهم يعاملون البشر كجراد هائج يجب قتله قبل أن يقضي على الأرض؟ لماذا لم ينقذوهم، بل لماذا تعمدوا قتلهم؟

أين نحن من هذا العالم؟

بعد أن هدئت الأمور ودُفن الموتى واستوعب الكل هول ما حدث، عقد أهل القلعة اجتماعا مع الوافدين الجدد ليستعلموا عن العالم الذي تركوه خلفهم وعمّا آلت إليه الأمور. أخبرهم الوافدون أن الكثيرين قاموا بالاختباء في أماكن كانت مجهزة للحالات الطارئة.

محميات معزولة عن الخارج ومحمية من كل ما يمكن أن يسبب الأمراض ومجهزة بجميع ضرورات العيش مدة عشر سنوات. تم توزيع الكثيرين على بعضها ممن تم اختيارهم (بين علماء وتقنيين ومهندسين وأطباء ...ومسؤولين كبار وغيرهم). قد تمت تصفية كل الباحثين الذين حاولوا محاربة المرض من طرف أشخاص مجهولين، عمّت الفوضى الكثير من الأماكن وصار للسلاح والقوة السلطة الأكبر في المدن الكبرى.

– سأل أحمد قائلا: " من هم هؤلاء السفاحون؟"

– أجاب ربيع، أحد الوافدين الجدد قائلا "لا نعلم هوياتهم، هناك من يقول أنّهم عصابات لا وطن لها ولا دين ولا أحد يعلم عنهم شيئا".

– "وما هي حججهم لتنفيذ هذا الأمر الظالم وضمانهم قدرتهم السيطرة على الفوضى قرب المحميات مع العلم أنها لم تبق سرية طبعا" سأل عمر.

– أجاب ربيع "زُرع الأمل بين الناس بإنقاذ العالم، لذلك لم يتوقف العمل في المستشفيات حتى الآن ولم يهتم الناس بشائعات المحميات

... الحمد لله هناك أشخاص استطاعوا استيعاب الفوضى في الكثير من الأماكن"

– سأل إبراهيم مستغربا "شائعات؟"

– أجابت راضية، التي مازالت تتألم بسبب كسر تعرضت له "هذه المعلومات عرفناها بالصدفة والكثيرون يجهلونها ولا دليل يؤيدها".

– أضاف الشيخ عبد السلام قائلا "من هم حتى يعتقدوا أن لهم الحق في تقرير من يعيش ومن يموت ... أيا كانوا وكانت خططهم فالقدر ليس بأيديهم".

– سأل حيدرة قائلا "والذين سيعترضون طريقهم ما الذي سيحدث لهم؟".

– أجاب حازم "حسبَ علمي، سوف تتم تصفيتهم مهما كان الثمن كما حدث في محمية قريبة من المستشفى الذي كنّا فيه والتي مات كل من حاول اقتحامها، ومن هرب منهم لجأ إلى المشفى ولكنهم ماتوا بالوباء"

– سأل مروان "من قبل من؟"

– أجاب "لا نعلم، كما سبق وقلنا، لا نعرف هوياتهم ولا حتى هدفهم الحقيقي، لا نعلم من يمسك بزمام الأمور ويقرر ما عليه فعله، كل ما علمناه أن رجال الأمن ومن تبقى من المسئولين في كل بلد يحاولون السيطرة على الأمور وحماية أنفسهم والآخرين منهم ومن الوباء"

– قالت نسرين "إذن، هم من قاموا بتدمير بعض المختبرات حتى لا يكتشف علاج للمرض"

– قال عمر "أتعنين أنهم تعمدوا نشر هذا الوباء كي يموت آلاف البشر؟"

– قالت "ربما، لست متأكدة ولكن الخبراء قد تمت تصفيتهم بشكل غامض".

توالت الأسئلة على الدفعة الأخرى من المنبوذين، وكل يستعلم عن مدينته أو قريته وعن مصير المناطق التي بدأت تعمّها الفوضى. لكن السؤال الأهم لم يطرحه سكان القلعة بل طرحه الوافدون، وهو: لماذا لم يظهر هذا المكان من الأعلى؟ أثار هذا السؤال استغراب الكثيرين واستفسروا عن سبب طرحه، فقد قال الوافدون أنهم قبل أن يلقى بهم من الطائرات، لم يكن يبدوا لهم غير سطح الماء ولم تظهر لهم أيّة يابسة من الأعلى حتى اقتربوا منها. سأل أدهم قائلا:

– "هل أنتم متأكدون ... لا أحد منكم رأى الشاطئ ولا رآنا؟"

– أجابه ربيع قائلا " أنا عن نفسي متأكد تماما، فقد كنت أستعد لأنقذ نفسي من الغرق قبل أن ألمح أني متجه نحو شاطئ لا بحر عميق".

– قال نعيم "ما الذي يعنيه هذا؟ كيف لا يظهر هذا المكان من الأعلى؟".

لكنّه لم يجد جوابا، فهذا السؤال لا جواب له عندهم. قال مروان مضيفا سببا آخر يزيد من حيرة المنبوذين:

– "نحن لم نر هذه اليابسة جميعا، أحمد من رآها أولا ولم نر نحن إلا ضبابا"

– قال طاهر "معكم حق ما رأيناه لم يكن يابسة واضحة، بل مجرد ضباب، ولكني ظننت أن هذا بسبب المرض ... أي أنه هو ما جعلني لا أرى بوضوح".

أكّد الكثيرون كلامهم، فمعظم المنبوذين من الدفعة الأولى تبعوا أحمد والباقين وهم لم يروا إلا ضبابا. استمر الكثيرون في محاولة فهم

وتحليل هذا الأمر، لكن دون جدوى، فهُم حتى لم يجدوا لهذا المكان اسما ولا عرفوا لأي بلد ينتمي، هل هي جزيرة أم جزء منسي من قارة معروفة، أم بعد آخر دخلوا إليه وضاعوا فيه ومعه.

تمَّ ترتيب مبيت الوافدين في بعض الغرف الأرضية في الجهة اليمنى والقصر، فلم يكن مرحبا بهم إلا هناك. قام العمال بإعطائهم بعض الملابس والأغطية ولم يتوصلوا بشيء من عند الجيران. بدأت الاعتراضات من طرف المدللين على استضافة الناجين الجدد، فالطعام والماء بالكاد يكفيان. قال نعيم مخاطبا الجميع عند الساحة حيث أعلن اجتماعا طارئا كما أمره حيدرة:

– "كيف سنطعم هؤلاء؟ ... هكذا سنموت معهم جوعا وعطشا"

– وقال السيد مسعود: "عليهم أن يغادروا ويجدوا لهم مكانا آخر".

علا الصّراخ، وتوالت الاعتراضات دون أن ينطق أحد من العمال بكلمة إلى أن قال عمر بعد أن أسكت الجميع:

– "الطعام نعتمد فيه على السمك، ونحن من نصطاده وهم سيساعدوننا على العمل منذ الغد، أما الماء فنحتاج لاستخراجه عمّالا أكثر وسيفيدوننا في ذلك، سنوسّع الحقل ونزيد عدد عماله ولن ينقصنا لا الطعام ولا الماء".

صمت الجميع بعد كلام عمر، فالعمّال الذين يتكبدون عناء توفير المؤن لم يعترضوا، ولم يعد لدى المدللين ما يقولونه. لكنّ حيدرة كان قد حقق مبتغاه من هذه الجلبة، وهو أن عمر سيسكت مدة طويلة عن عدم مشاركة المدللين في العمل بعد أن فرض عليهم وجود الباقين.

عرف الوافدون أنهم إن أرادوا أن يعيشوا هنا عليهم أن يعملوا منذ الغد ويساعدوا الآخرين، لأن أكثر من نصف سكان القلعة تقريبا لا

يعملون ولِكي لا يعترض أحد على بقائهم. لا حاجة أن يشرح لهم أحد الوضع الراهن فقد لاحظوه منذ وصولهم. لاحظوا أن الكثيرين لم يساعدوهم ولم يشاركوهم أكلهم وملابسهم كما فعل الباقون، وسمعوا بآذانهم رفض المدللين لهم.

عرفوا أن الطبائع البشرية السيئة لا تختفي وقت الأزمات، بل تظهر جليا وتصبح أكثر وضوحا، والسيئ يسوء أكثر والجيد تظهر عليه ميزات لم يكن نفسه يدرك وجودها كالبعض ممن تخلوا عن أماكنهم في الطابق السفلي وصعدوا للشقق الخالية في الأعلى تاركين غرفهم للمصابين والمرضى الجدد.

فشل حيدرة في طردهم ولكنه حرّض أتباعه على إقناع العمّال بضرورة فعل هذا. كي تبقى حجتهم القوية على تهاونهم في العمل وعلى احتفاظهم بممتلكاتهم. فقد قالت قوت القلوب لعاتكة بينما تساعد هذه الأخيرة في توزيع الغرف:

– "لماذا لا تعطونهم غرفة في القصر وملابسكم مثلا؟"

– قالت عاتكة "لأن كل الموجودين هنا يتمنون هذا ولا نستطيع أن نعطي البعض ونمنع البعض الآخر، المرضى فقط هم من سينامون في القاعة الكبرى في القصر ريثما يتم علاجهم"

– قالت قوت القلوب "إن بقيتم هكذا تُدخلون من هبّ ودبَّ فسوف لن تجدوا مكانا تنامون فيه فيما بعد، لذلك لن أتخلى أنا عن ما أملك لأجلهم كي لا أجد نفسي قد صرت في العراء يوما ما"

– نظرت عاتكة إليها وردت قائلة "لدينا أماكننا في قبورنا لن نخطئها ... تأكدي من هذا، وسواء أفي العراء كانت أو تحت التراب، فلن يحدث ذلك فرقا".

لم تكن عاتكة تهتم بأمر المؤن رغم أن أعباءها ازدادت وعليها التسريع في توسيع الحقل، وتوفير الطعام الكافي، لكنّها كانت آخر من يمكن أن يتذمر. بعد أن اطمأَنت أن كل النساء الوافدات قد وجدن أماكن نومهم، ذهبت إلى جناحها لتستريح بعد يوم وليلة متعبين. جلست على الشرفة وحدها في عتمة تلك الليلة. رآها عمر الذي كان يحرس في الاتجاه المقابل على تلك الحال وذهب إليها مسرعا. فتح الباب ببطء وأغلقه وراءه، توجه نحو الشرفة مصدرا صوتا بقدميه حتى يُعلمها بوجوده، قال لها بعد أن دخل الشرفة:

– "ألم تطمئني أن الكل استقروا وناموا؟"

– أجابت بتلعثم "أجل"

– قال بعد أن لاحظ أن الكلمات تخرج بصعوبة من فمها "ماذا بك؟"

– أجابت "لا شيء"

– اقترب منها وأدار وجهها نحوه برفق فوجدها غارقة في دموعها ثم سأل "ماذا بك لماذا تبكين؟"

– أجابت قائلة "لست وحدي من يبكي، بل الكثيرون هنا سرا وعلنا حتى أنتَ. لأننا استقرينا قرب الشاطئ ليس خوفا من قتلة الغابة، بل في انتظار أن يلحق بنا غيرنا أو مجيء من يعيدنا إلى الديار"

– قال بعد أن جلس بقربها "هذا ما يقلقك، أن لا أحد سيأتي ويعيدنا، أنا عن نفسي قد نسيت هذا الأمر منذ ودّعتهم وكان عليك فعل نفس الشيء"

– أجابت "أعيش كل يوم أملا أن يلحق بنا من نحبهم إلى هنا وينجون كما نجونا. أمّا الآن حتى وإن نجوا من الوباء فربما سيموتون بعد وصولهم غرقا أو وقوعا على الأرض الصلبة"

– قال مواسيا بابتسامة هادئة "يا عزيزتي، الموت مقدر علينا وعلى أحبائنا بسبب الوباء، أو بغيره"

– أجابت "معك حق لكن كان لدي أمل أن أراها ولو ليوم واحد وبعدها فليكن الفناء حتى".

نظرت إليه وهي تنتظر أن يحضنها لعلّ حضنه ينسيها أحباءها ويعوضها وجودهُ بقربها عن فراقهم. لكنه اكتفى بتقبيل جبينها وودعها بابتسامة. يئست من انتظار الحضن، وقامت من فورها وذهبت إلى فراشها لعلها تستطيع أن تستجدي النوم وترتاح، بينما عاد هو إلى الحراسة. توجّه عمر نحو أحمد الذي يحرس أعلى السور الشمالي وقال له:

– "ما تزال تأمل بالعودة وتنتظر أهلها، والآن هي حزينة لأنها فقدت هذا الأمل"

– أجابه أحمد "هذا يزعجك؟"

– أجابه "كلانا مرتبطين بماضي تركناه وراءنا، تمنيت لو استطعت أن أضمّها كأي زوج يواسي زوجته، ولكني كلما أقترب منها أرى الأخرى".

– ردّ عليه أحمد قائلا "لا تقدر أن تنجذب إلى قلبها، لِمَ لا تحاول معرفة ما يريده ويفكر فيه عقلها، لعلّك تُعجب بعقلها وتكون بداية حب آخر؟"

– أجاب دون تردد "عقلها يفكر في أمور بعيدة، مثلا تريد البحث عن مكان آخر نعيش فيه فهي تقول إن هذه القلعة لن تسعنا طويلا"

– قال أحمد "ربما معها حق فعلاقتنا بحيدرة كقنبلة موقوتة ستنفجر يوما ما فإما سيرحل هو أو نحن، كما أننا نحتاج مصدرا آخر للطعام"

– صمت عمر لبرهة ثم قال "لقد رأيتُ الضوء قادما من نفس المكان الذي أشرت إليه وذهبنا باتجاهه، ماذا يريدون منا؟"
– أجاب أحمد بعد أن نظر نحو الغابة "لو أرادوا قتلنا لفعلوا، لقد استعرضوا قوتهم ومهارتهم بنقل جثة نديم"
– أضاف عمر قائلا "هل تعتقد أنهم يظهرون قوة لا يملكونها كي يخيفونا"
– قال له "سنعرف يوما ما لأننا سندخل الغابة من جديد"
– ختم عمر حوارهما قائلا بابتسامة متحمس "بإذن الله".

من بين الوافدين الجدد، كانت سحر الفتاة العمياء ذات الواحدة والعشرين سنة، تدرك أن عليها أن تبذل جهدا كبيرا كي تعيش في هذا المجتمع، فإلى متى سيحتمل هؤلاء عبء العناية بها. في الصباح نهضت من مكانها في الغرفة التي تقطنها مع أربع أخريات، وخرجت من الباب محاولة إيجاد طريقها نحو باب القلعة، وباحثة عن شخص ما تسأله عن المكان الذي تعمل فيه النساء كي تقوم بمساعدتهن. خرجت تتحسس لقدمها موطئا آمنا، تحاول ألا تتعثر أو تطأ شيئا يؤذيها. وإذ بها تدوس حجرا حادّا تسبب لها بألم كبير. أحسّت بالألم وهي تحاول أن ترى ما لا تستطيع رؤيته، لكن هاتين العينين المنطفئتين لن يعود النور إليهما لمجرد رغبة صدرت منها في حالة احتياج. وبينما هي تحاول أن تضع قدميها على الأرض وتكابر ألمها وخوفها وإذ بها تسمع صوتا يقول:
– " السلام عليك، اسمي طاهر، هل أنت بخير؟ هل تحتاجين شيئا؟"
كان الصوت قادما من الأسفل كأنه صوت طفل لكنه كان لشخص بالغ، أجابت:
– "وعليك مثله، أريد أن أذهب لمساعدة الأخريات في العمل"

– فردّ عليها قائلا "إنهن على الشاطئ سوف آخذك إليهن"
مدّ يده محاولا الإمساك بيدها واقتيادها نحو الشاطئ، ولكنّه توقف خوفا من أن تنزعج منه وخجلا، فهو لم يمسك يد امرأة من قبل غير يد والدته. أردف قائلا بعد أن صمت للحظات:
– "انتظريني هنا سأجد لك عصى تمسكين بها، غرفةُ الحطب قريبة".
– أجابته قائلة "شكرا لك سوف أعتاد قريبا على الطريق والعصى سوف تساعدني".
دخل الغرفة التي في الجهة اليسرى قرب الباب، وبدأ يبحث بين كومة الأغصان التي هناك عن شيء يناسبها. كان يحاول أن يتجنب إيقاع كومة عليه من تلك الأغصان القديمة.

بينما طاهر الذهبي يزيل الأغصان باحثا عن عصا مناسبة، إذ به يكتشف أن هذه الغرفة ليست لتخزين الأعواد والحطب كما اعتقد الجميع، بل هناك شيء آخر تخفيه الأكوام تحتها. نادى بأعلى صوته المستكشفين مروان وأدهم اللذيْن كانا على سطح القلعة يبحثان عن شيء يدلهما عن منبع ماء، بعد أن أجلا رحلة بحثهما خارج القلعة حتى الغد كعمر وأحمد، ناداهما طالبا منهما مساعدته. نزلا بأسرع سرعة وشرعا في إزالة الأغصان عن البناء الذي كانت تغطيه، وإذ بها بئر قديمة ومغطاة بغطاء خشبي سميك.

رفعوا الغطاء ليجدوا دلوها ما تزال مثبتة بحبل سميك. فَحصُوها ليتأكدوا من أن الحبال التي تشدها متينة، ثم أنزلوها من جديد ليروا ما سوف تخرجه. وإذ بها تحتوي مياها نظيفة، تذوقها مروان وعلى غير المنتظر لم يبصق ما ارتشفه بل وزاد عليه وهو يستمتع بالماء اللذيذ الذي لم يتذوق مثله قط. أخيرا وجدوا مصدر الماء العذب، واطمئنوا على حصولهم على حاجتهم منه، هكذا وُفّر الجهد والعناء المبذولين

في التقطير وصار بإمكانهم الحصول على وقت أكبر للراحة أو الاستكشاف.

وصل الخبر إلى باقي سكان القلعة وفرحوا بما سمعوه خاصة الذين أتعبهم جمع قطرات الماء من هنا وهناك. أراح هذا قلوب الوافدين الجدد الذين رحبت بهم هذه القلعة بإيجاد هذا البئر العذب مباشرة بعد وصولهم. لكن هذا لم يمنع المنبوذين من التفكير في مسألة أخرى. لم يتوقف الكثيرون لحظة واحدة عن التخمين في السبب الذي يجعل هذه الأرض مختفية عن الأنظار ولا تظهر إلا لمن يقترب منها، ولماذا لم يُسمع عنها من قبل. فحسب ما رأوا أنها ليست جزيرة صغيرة بل أرض واسعة ممتدة على آلاف الكيلومترات.

بدأت أسئلة كثيرة تُطرح في سرهم وعلنهم: ترى هل نحن موتى أم أحياء؟ هل كل هذا حقيقي أم نحن في بعد آخر مختلف عن الذي جئنا منه؟ هذه الأرض هادئة خضراء فعلا، وشاطئها معطاء وسخي وماؤها عذب ونقي، وكلما احتجنا إلى شيء ظهر بتعب أو بالصدفة؟ أم هي أوهام نتوهّمها وأحلام ستختفي بعد استيقاظنا؟. وجدنا بها قلعة بنيت منذ القدم، ولا يوجد شيء هنا يدل على وصول التكنولوجيا الحديثة إليها وكأن الزمن توقف هنا منذ عصور قديمة. كيف إذن سكن بها أشخاص من قبل إن كانت مختفية؟ وكيف لم يجدها الرحالة والمستكشفون ولا وقع عليها نظر سفينة مبحرة من هنا وأوصلوا أخبارها؟ ولا التقطتها الأقمار الصناعية في صور الكوكب المتداولة التي في متناول الجميع؟ ترى أين نحن من هذا العالم؟.

حب وحنان

مرّت الأيام بانسياب، بالكاد يحسون بمرورها، وظلّت عقولهم حائرة تفكر في سرّ هذا المكان، لا أجوبة للأسئلة التي تدور في خلدهم عنه. يأملون أن يجدوا ردودا شافية بعد عودتهم إلى ديارهم، بيدَ أن قلوبهم المنبوذة التي تتحسر كلما تذكرت ما فقدته صارت ترى نفسها منسية مهمشة كالأرض التي يطؤونها الآن. قلوبهم المجروحة المشتاقة للحب والحنان باختلاف أشكاله لم تعد تملك دافعا للعودة، فقد ضاع ما أحبته في عالمهم ولم يتبق منه إلا أشلاء. بيد أن هناك دافعا قويا جعل بعضهم لا يفقد الأمل في العودة، أنّهم يمكن أن ينقذوا من تبقى من البشر ويعيدوا كل شيء لما كان عليه إن كشفوا سرّ هذه الأرض وحصلوا على العلاج. هذه الأرض الغريبة ذات الحيوانات والنباتات الغريبة، التي تملك سرا ما جعلهم أيضا أقوى وأقدر على مقاومة المرض، يمكن أن يكون فيها نجاة أحبائهم ويعود كل حبيب لحبيبه وكل قريب لقريبه ويستعيدوا من جديد الحب والحنان. الحب والحنان الذي افتقده البعض وفقد البعض الآخر حتى الرغبة فيه.

كانت نظرات عدي سيد أحد الوافدين الجدد غريبة لعاتكة منذ أن رآها أول مرة بعد أن استيقظ من إغماءته في صباح اليوم الذي تلى وصولهم. نظرات ملئى بالحب والحنان أحيانا وبالكره والمكر أحيانا أخرى. كانت تتجنب الاقتراب منه وتوجيه الكلام إليه

إلا إن اضطرت لذلك، حتى أنه عندما كان مريضا اهتمت به أسماء بدلا منها. لكن نظراته الغريبة والغامضة تلك لم يكن يظهرها أمام الآخرين.

فمنذ أن استيقظ من الإغماءة وشرحت له أسماء كل شيء حول هذه القلعة وما يدور فيها، جلس في فراشه يستجمع قواه ويفكر أي جهة سيختار. فقد فهم كغيره من الوافدين الجدد أن للقلعة حاكمان حيدرة وعمر فمن عليه أن يوالي كي يعيش بشكل جيد. لا مكان له بين المدللين السباقين للرفاهية والمتأثرين بحيدرة الذي سبق واعترض على قبول الوافدين الجدد بينهم ومنع المدللين من مساعدتهم. أمّا بين العمال فمن يغامر بحياته ويجلب لمجتمع النحل هذا بقيادة عمر ما يحتاجونه ولا يؤذي أيا منهم سيكون له شأن بينهم. لهذا أخفى ما يُكنّ في قلبه لها بداخله كي يجد له مكانا مع العمال. لم يكن الوحيد الذي اختار هذا الاختيار، بل معظم المستجدين في القلعة بدؤوا يجدون لهم مكانا بين العمّال. لكن الطمع والجشع في النفوس البشرية لا ينضب، ويقل الإخلاص والوفاء، فكثيرون لم يُهمَّهم عمر ومن معه إلا كمصدر للأمان لا كأصدقاء وخلان، يدّعُون الحب ويتصنّعون الحنان ويخفون الجفاء والحسد. منهم من بدأ يستميل المدللين وعلى رأسهم حيدرة خلسة خوفا من تقلب الأمور وانحياز الدفة إليهم. فهؤلاء المتملقون رأوا جليا الطمع في عيون حيدرة وقوته وقدرته على التأثير، ورأوا رضى وقناعة عمر وقد تعود الناس أن النفوس الطامعة لا ترتاح ولا يهنأ لها بال حتى تحظى بما ترغب به وتأخذ ما لدى غيرها ولا تشبع مهما أخذت، وتوجسوا من إمساك حيدرة بزمام الأمور يوما ما فوطدوا لمكانهم معه.

وُزّعت المهام على الكثير منهم، وبخلاف المتملقين فالباقون اندمجوا بسرعة في العمل وأحبوه وارتاحوا للقليل من الحب والحنان والأمان الذي حظوا به بعد النبذ.

حصل أصدقاؤنا على أصدقاء جدد، ولكنهم حصلوا أيضا على وقت أكبر لأخذ فرصة للاستجمام. والاستجمام كما منحهم وقتا للراحة، منحهم وقتا لاسترجاع ذكرياتهم المرّة والحلوة ومحاولة ترميم كسورهم وتعويض حرمانهم من الحبَّ والحنان.

ذات يوم وفي صباح مشمس وجميل، أنهى مروان تجهيز غرفة تخزين السمك المجفف بمساعدة أدهم ولبنى والدكتور أكرم، غرفة ذات تهوية جيدة ومحكمة الإغلاق سيحاولون تجربة تخزين السمك بها. قرر أن يتوجه إلى الشاطئ ليستريح قليلا من عناء العمل. وبينما هو يقترب من الشاطئ الرملي مبتعدا عن كتل الصخور التي تفصل بين القلعة وبين البحر رفع عينيه ليتأمل من بعيد منظر الأمواج الدائرية وهي تتحول إلى وسائد بيضاء تختفي حين تلمس الرمال المبللة. همّ بالارتماء في أحضانها والاستمتاع بدقائق سباحة مسروقة من ساعات العمل. لكنه رأى شيئا آخر جذب انتباهه، رأى سعاد الحلوي واقفة على حافة الشاطئ. ذهل بجمالها السحري وأمواج البحر تتكسر عند قدميها المختفيتين تحت ثوبها الفضفاض الذي يرفرف باتجاه الريح. بدا البرد آنذاك كأنه يريد سحبها إلى الوراء وإبعادها عن الأمواج غيرة عليها منها. كانت في ذلك الثوب الطويل والوشاح القرمزي الجميل كأميرة من أميرات الحكايات الخيالية الجميلة.

لم تكن أول مرة تأسره عندما ينظر إليها، ولا أول مرة يتمنى لو أنه يمتطي حصانا أبيضا ويأخذها إلى قصره الجميل الذي يقيم فيه

حفلة زفافهما. كان قد تمكن حبها منه وأسره، ولم يستطيع أن يتخلص منه وشُغل بها منذ رآها وحكى لكل رفيق له من بين المنبوذين عن حبه لها. كيف لهذا العاشق الولهان أن يحظى بحبيبته في مجتمع مشتت كل فرد منهم له عالمه الخاص. السبيل الوحيد الذي أمامه كي يحقق حلمه ذلك هو أن تقطع الأمل بعودتها إلى زوجها الذي عقد قرانه عليها قبل انتشار الوباء في مدينتها بمدة.

كان يبذل ما في وسعه لكتابة كلمة النجدة والتي يجمع لأجلها أحجارا ذات لون غامق كي تظهر من فوق بارزة وسط لون الرمال الذهبي، لعل طائرة ما تراها وينجون وتفرح سعاد بعودتها إلى الديار حتى وإن عادت إلى زوجها وحرم مروان منها. كان كله أمل أن يكون زوجها قد نسي أمرها وتجده في لحظات الضياع أمامها مادّا يده إليها ليأخذها معه إلى عالمه الجميل.

كان حلما ورديا يتمنى لو يتحقق، لم يستسلم منذ أدرك شعوره نحوها بعد خامس يوم من دخولهما المستشفى في نفس دفعة المرضى. منذ ذلك الحين وهو يذهل عندما يراها كما هو الآن على الشاطئ.

في هذه اللحظات كان ما يزال يهيم في عالمه الوردي حتى أيقظه صوت صراخ أدهم وهو يستمتع بالسباحة. أدرك بعدها أنه واقف هنا منذ زمن. اقترب منها محاولا إخراجها من أحلامها الجميلة وإدخالها في أحلام أخرى يكون هو بطلها.

هذا الشاب الوسيم ذو الملامح الطفولية من كثرة إهمال والديه له وانشغالهم بأمور أخرى عنه لطالما بدت له تافهة، كان يعاني من نقص في الحب والحنان. كانت حياة والديه باردة وخالية من المشاعر الفيّاضة والكلمات الجميلة العذبة مما جعله يفتقد هذين الشعورين. عوّض هذا النقص بالانكباب على دراسته وباكتساب حس فكاهة

خفيفة كان يجذب بها اهتمام من حوله، ويعوض بذلك ما حرم منه في أسرته، ويجبر كسر قلبه المنبوذ. أدت كثرة لجوءه إلى استخدام هذا الأسلوب في حياته إلى امتلاكه من حس الدعابة والمرح ما يستطيع به أن يجعل سعاد تضحك ملئ شدقيها وينتهي بها الأمر إلى الاعتذار والابتعاد عنه عندما تتذكر أنها ما زالت تنتظر زوجها.

دائما ما تحس بسعادة كبيرة حين يكون مروان بقربها وشعرت بالأمان منذ أدركت أنه يعتني بها ولو من بعيد ويمنحها ولو بصيصا من الحب والحنان اللذان افتقدتهما منذ نعومة أظافرها.

إنّها أول مرة ترتدي فستانا في حياتها وتستمتع بمنظر جميل دون أن يذكرها شخص ما بأنها سجينة لقيود أنوثتها. كانت سعاد البنت الوحيدة في الأسرة بين ثلاث ذكور وكان والديها يخشيان أن تربى تربية فاسدة وتقدم على فعل ما يجلب لهم الخزي والعار، مما جعلهما يحاصرانها ويراقبان كل تصرفاتها وكلامها. رغم أنها لطالما كانت تحرص على فعل الصحيح وتجنب الخطأ وكانت مؤدبة وخلوقة. أحسّت أنّها لم يكن مرغوبا فيها وسط أسرتها وتمنت لو أنها كانت ولدا لا بنتا، مما جعلها تتعلم الكلام كالفتيان وابتعدت عن ارتداء الفساتين والجلابيب حتى نسيت أنها أنثى.

كان كل مناها أن تحظى بحنانهما وثقتهما وأن لا تعامل كخطأ قاما بارتكابه، لذلك وافقت على الزواج بأول رجل يتقدم لخطبتها وتصبح أخيرا محبوبة مرغوبا فيها بينهما عوضا عن الإحساس الذي لازمها طويلا، إحساس أنها منبوذة. إحساسٌ عاد بقوة إليها وصارت تراه جزءا من قدرها بعد أن طلقها زوجها قبل سفره مع بعثة عمل في إحدى المختبرات البيولوجية، بعد أن سمعوا عن وباء بدأ ينتشر قال لها كلمات لم تستوعبها ولم تفهمها:

– "هذا الوباء قاتل، في حال أصبتُ به ربما لن تعلمي بموتي لذلك ستكونين حرة إن طلقتك ولن تضطري لانتظاري، اختاري طريقك فإن عدت حيا سأكون سعيدا بالزواج منك وإلا فانسيني"
أيُّ خيار بقي أمامها وقد تركها من جديد منبوذة، جعلها كطائر جريح فقد عشه الآمن. لم تنس كلماته ولم تغضب من قراره الجائر، بل وظلت تحيي على أمل لقاءه من جديد.

كان مروان الذي يجهل أمر طلاقها، يجعل دائما مسافة متر بينه وبينها ويتجنب إطالة النظر إليها بعدما يستيقظ من تيهه كلما رآها، ويحاول أن يكون مؤدبا معها قدر الإمكان، لعله يقنعها أنه الرجل المناسب لها. تمنى لو أنها تتقبل فكرة أنهم غادروا ديارهم إلى الأبد وأنهم في حكم الموتى بالنسبة إلى باقي العالم، لكنّها ما تزال مكبّلة بقيود ماضيها. أمّا المسكين الذي بقربها فقد تقبل قدره وقرّر أن يبدأ حياة جديدة وينشأ أسرة لا يحرم أحد فيها من الحنان، ولا ينبذ أحد أفرادها من قبل الباقين. لا يعرف لماذا مال إليها، ربما لأن ما تبحث عنه هي، نفس ما يبحث عنه أيضا، الحب والحنان. استمر الثنائي المنبوذيْن يتبادلان أطراف الحديث ومروان يسعى جاهدا كما يفعل دائما لجعل سعاد تكف عن استرجاع الماضي وتراه في حاضرها.

على الشاطئ الجميل لم يكن مروان وسعاد وحدهما اللذان يحاولان البحث عن الحب والحنان. فوقت الفراغ القصير الذي حظوا به سمح لفارس آخر أن يحاول التقرب من حوريته التي ما إن يراها حتى يرى فيها كل معنى جميل للحياة. طاهر، الذي يئس من محاولة لفت نظر امرأة إليه لأنه لم يتوفر على الهرمونات الكافية التي تؤهله للوصول لطول معقول، كان لديه أمل في المرأة الوحيدة التي لم تنظر إليه وهي تحني رأسها لكون سَحر ببساطة لا ترى.

تعب هذا الرجل من معاملة الناس السيئة له ومن السخرية التي لاقاها من الكثيرين ومن إحساسه في الكثير من الأوقات التي يكف فيها عن شراء الصداقة بماله، أنه شخص غير مرغوب به في المجتمع، أنه شخص منبوذ. لطالما سعى ليظهر للناس أنه يمتلك ميزات جميلة غير المال، لطالما أقحم نفسه في وظائف لا حاجة له بها حتى يحتك بالناس ويكسب حبهم. وشغل نفسه بتعلم حِرف كثيرة كما نصحته أمّه كي ينسى حقيقة نبذه من الكثيرين. كان كلما كلّم سحر يحاول أن يعرفها بنفسه أكثر ويجعلها ترى أعماقه وماهيته الحقيقية بغض النظر عن شكله. كان يسعد عندما تتحول نظرتها من التيه إلى الإعجاب إذ يعرف أنه ترك انطباعا جميلا عنه في نفسها.

كانت قد جلست منذ نصف ساعة تحت الشجرة تستظل بظلّها وتنظر نحو أقوى صوت يصل لآذانها وهو صوت ارتطام الأمواج. تسترجع ذكرياتها عن ماضيها، فجأة أحسّت بشيء غريب خلفها وسمعت صوتا يقترب منها. كان صوت تكسر الأغصان، تتخلله أنفاس قويّة تدنو منها. بدأت دقّات قلبها تتسارع والصوت يقترب منها الهوينا والنَّفَس يصير أقوى وأشبه بخوار الثور لا بأنفاس إنسان. همّت بالصراخ والوثوب ولكن صوتا آخر استوقفها وجعلها تطمئن، صوت طاهر وهو يلقي السلام عليها.

اطمئن بالها فلو كان هناك خطر ما خلفها لكان رآه. استهل حديثه بوصف جمال الشمس التي يحب الكثيرون النظر إليها وتجذب أنظارهم كما تجذب صفرة ولمعان الذهب عيون عشاق الجواهر. رغم أن كلامه كان غريبا عنها إلا أنها مستمتعة به لأنه من القلائل الذين يكلفون أنفسهم عناء إضاءة النور في حياتها ليخففوا من حلكة الظلام الذي تعيشه. فلطالما احتاجت لمن يؤنسها ويساعدها ويقرأ لها

ما تحب من كتب ومجلات ويحسسها بأهميتها عنده. ذلك الإحساس الذي افتقدته كثيرا لإدراكها أن صدور من حولها تضيق من وجودها كأنها عبئ ثقيل يحملونه. شخص منبوذ لا يستحق حتى الحب والحنان.

وبينما هم كذلك، كان عامر يهيم وحده على هذا الشاطئ يحاول أن يستجمع قواه كي يصارح حبيبته بحبه لها. عامر الذي قضى خجله وتردده وتلعثمه الخفيف في الكلام على فرصه أن يكون محطّ أنظار الناس رغم ذكائه وتفوقه. لطالما اختفي خلف نظاراته التي يصعب عليه النظر بدونها ولم يتخل عنها حتى بعد أن نبذ هنا. لطالما تعرض لسخرية الناس واستهزائهم لعدم قدرته على مجارتهم في المزاح الخفي المشفّر واعتبر مجرد نكرة، منبوذ ممن حوله.

أحب تلك الفتاة بعد ما تعرف بها رغم أنها مختلفة عنه وطباعها غريبة عن طباعه، ولطالما رأته كما رآه الباقون، شخص منغلق وغريب، بعيد عن واقعه ولا يعيش في زمنه. ظلّ ينتظر اليوم الذي تحلّ فيه عقدة لسانه ويستطيع أن يصارحها بحبه بطريقة تجعلها لا تقدر على رفضه. لكنه لم ينجح إلى الآن رغم تعليم أحمد إياه أحلى كلمات وأشعار الحب التي يجيدها، والتي يتمنى بدوره لو أنه بإمكانه أن يلقيها على حبيبته ويصارحها بمشاعره نحوها لكن هذا مستحيل. أمّا عدي سيد فقد دأب على البحث عمّن تملأ فراغ قلبه وحاجته للحب والحنان وقد وجد ضالته في نرجس. انجذبت هذه الأخيرة لكلماته الساحرة ووعوده الوردية، ولم تكترث لتحذير عاتكة لها منه. فهذه الأخيرة تعرف ما يعني الحب والحنان لشخص مثله، فهو مختلف عن الحب عند الآخرين.

هؤلاء الثلة هم جزء من كثير من المنبوذين الذين يسترجعون ذكرياتهم الماضية ويحاولون نسيان السيئ منها وبدء حياة أخرى، كلهم يجمع بينهم احتياجهم للحب والحنان الذي فقدوه.

حل وقت العصر في هذا اليوم الذي لم يكن أقل نصَبا من سابقه رغم كثرة العمّال، وقد انكب كل على أداء العمل الذي تطوع للقيام به، ها هي عاتكة تسقي مشتلها الصغير الذي شيدته في باحة القصر بمعية أسماء بعد أن أحضرا التراب من أطراف الغابة. عاتكة التي أضافت إلى أعبائها بين الاعتناء بالحقل والمرضى والمساعدة في توزيع الطعام ومساعدة عمر عندما يعود منهكا لا يقدر حتى على خلع ردائه، أضافت هذا المشتل أيضا. فقد تعبت هذه المسكينة من انتظار اليوم الذي يقرر فيه عمر أن ينسى صورة حبيبته وينظر إليها كما ينظر الرجل إلى امرأته ليس كما ينظر زوج هرم لزوجته المسنة.

لم تكن تكلمه في الأمر ولا حتى توحي له به فقد رضيت منذ زمن بدور الراهبة الذي سجنت فيه منذ أن غادرت منزلها، ورضيت بالحرمان من الحب والحنان. مثلها مثل أسماء التي تظل تشغل نفسها بمراقبة المرضى وباقي المنبوذين لتلاحظ تطور المرض وتكتشف أنه بدأ يختفي. لا يعرف عنها الجميع سوى أنها صيدلية تحب عملها وتحب عيادتها. ولا يعرف أحد أنها تحمل ألما كبيرا واشتياقا للحب والحنان. بينما يبحث كل حبيب عن حبيبه وكل قلب عن توأمه كانت هذه المسكينة غارقة في ذكرياتها ووسط أسرارها التي لم تحكها حتى لصديقتها عاتكة. وها هو عمر يشارك الباقين في إعداد السمك المجفف ليشغل نفسه بالعمل ناسيا القلب الحزين الذي يمكله والذي لم يعد يقدر أن يمنح الحب والحنان، ولا أن يأخذهما حتى من ولزوجته. أمّا مُؤنِس فقد انشغل بمساعدة عاتكة في الحقل وحراسته

وقد أدرك أنه تخلص أخيرا من الألم الذي كان يحس به منذ أن كفّ عن تعاطي المخدرات التي كان ينسى بها همه وهو مشرد في الشارع منذ نعومة أظافره، مكروه من الناس، منبوذ.

وها هو حيدرة وتابعاه يحومان في القلعة وهو يحاول اكتشاف المزيد عنها وينزعج من المتطفلين اللذين لم يكفا عن البحث في هذا القصر إما أحدهما أو كلاهما، مروان وأدهم وكأنهما يقومان بدوريات إزعاج له. حيدرة الذي منذ التقوه ومع علمهم أنه أعزب لم يحاول الاقتراب من أية امرأة أو الاهتمام بأيهن رغم أن بعضهن كقوت القلوب كانت لا تنفك عن محاولة لفت نظره. ذلك القلب الغريب الذي لم يُر منه حنان ولا يعرف أحد إن كان بداخله حب.

أما عدي سيد فقد بدأ يتجنب الاقتراب من نرجس أمام عاتكة بعد أن حذرته من التلاعب بها وأخبرته أن يطلب يدها إن كان راغبا بها. لم تكن عاتكة هي من يخيفه فما يعرفه عن ماضيها كاف لتهديدها ولكنه كان أحمد. فقد طلبت أسماء منه أن يبعده عن القلعة لأن نظراته مريبة، وبعد أن راقبه وتأكد من صحة كلامها، طلب منه أن يلزم الشاطئ ولا يدخل القلعة إلا مع باقي العمال بعد انتهاء العمل وأن يكف عن التحديق بالنساء بطريقته الخبيثة. لكنه لم يكف عن محاولة استمالة نرجس نحوه التي اشتياقها ليكون لها حبيب جعل قلبها يخفق له بسهولة. وعمله في الشاطئ بعيدا عن مراقبة عاتكة سمح له أيضا أن يلتقي بها كل مساء ويستميلها بكلامه المعسول وهداياه كما فعل هذا اليوم السادس عشر من وصول المنبوذين.

فقليلات حسب رأيها من النساء المنبوذات هنا من تحظى بفرصة الحصول على حبيب يهديها الهدايا بحب وحنان.

في هذه الأثناء والكل منشغل بعمله، سمع الناجون صوت طائرة أخرى تقترب من الجزيرة. استقر الصوت بمكان ليس ببعيد جهة الغابة. ركض الكثيرون إلى هناك نساء ورجالا إما فضولا أو رغبة في إنقاذ حياة الضحايا، أو بحثا عن أقربائهم بينهم، لكن ما إن وصلوا كان الكل قد ألقي بهم على الرمال أو الأشجار و قد لقوا حتفهم. اختلطت المشاعر في قلوب المنبوذين، لا يعلمون إن كانوا قد أشفقوا على الموتى أم يحسدونهم لأن معاناتهم انتهت بخلافهم.

بدؤوا القيام بالعمل الذي يكرهونه، وهو جمع الجثث لدفنها، وكل منهم يرى نفسه في إحداها ويرى مصيره الذي سيلقاه عاجلا أم آجلا ولا يعرف إن كان سيجد من يحمل جثته، أو سيلقى مصير أصحاب الجماجم والهياكل الملقاة بالغابة: البقاء في العراء.

بينما الكل يعمل بسرعة، إذ بسعاد تقف متسمرة أمام إحدى الجثث تحدق بها. اقتربت منها أكثر حتى تتأكد من ملامح صاحبها، وإذ بها تطلق صرخة قوية أعقبها بكاء مصحوب بأنين. التف الكل من حولها وأولهم مروان مستفسرين عن سبب بكائها الذي دام لدقائق بعدها، قبل أن تخبرهم أنها جثة زوجها.

غرقت سعاد في حزن وتفكير بعد ما حدث فقد صارت بعدما حدث تحاول أن تقلب صفحات الماضي كي تتقبل حاضرها الجديد. ارتدت ملابسها البيضاء التي جاءت بها الجلباب والوشاح والبنطال، كفنها الذي تحول إلى ملابس حداد على موت زوجها. أدركت أنها حتى وإن عادت إلى أهلها لن تجد ما كانت تصبو إليه من حب وحنان.

قد فقدت حصنها وحاميها من شكوك أهلها وخوفهم عليها، كيف سيقابلها أهلها وكيف سيعاملونها بعد عودتها من المجهول. بدأ

يتجلى لها أمر آخر كانت غافلة عنه، وهو أن المرض كما طال زوجها ربما طال أهلها، وهم كذلك قد نبذوا في مكان ما في هذا المحيط وحرمت منهم إلى الأبد. قرّرت بعد تفكير عميق أن تتابع حياتها طاوية صفحة الماضي إلى الأبد وتعيش كما تودّ هي، وتحبَ ملابسَها الجديدة والتي تعيدها لأنوثتها من جديد. بعد يومين من الحادث عرفت أنها غير ملزمة بعدة الأرامل لأنها قد طلقت دون أن يخلو بها زوجها، ولكنها ظلّت تستفسر من الشيخ عبد السلام أسبوعا كاملا قبل أن تعي أنها أخيرا صارت حرة. عادت إلى ارتداء ملابسها الملونة وأثارت استغراب مروان الذي فرح لهذا واستفسر منها عن سبب خلعها للملابس البيضاء. بعد أن أخبرته طار نحو الشيخ عبد السلام ليتأكد أخيرا أنها يمكن أن تتزوج في أي وقت تريده وأن الطريق نحوها صار معبَّدا.

لحق بها مباشرة في مكان استراحتها على الشاطئ حيث كانت واقفة كعادتها تنظر إلى الأمواج. إلا أنها هذه المرة كانت تلتفت كل بضع لحظات باتجاه القلعة وكأنّها كانت تنتظر حضور شخص ما. فجأة رأته قادما من بعيد وأشاحت بوجهها وكأنّها لم تلمحه. اقترب منها مروان وحيّاها بطريقته الهزلية وقال لها أنه سعيد لأنها خرجت من حزنها، وأخبرها بأن لديه طلب يتمنى أن توافق عليه. وقبل أن يفتح فمه بكلمة واحدة قالت له وهي تبتسم:

– "نعم، موافقة على الزواج بك، إن كنت ما تزال راغبا بهذا".

لم يتمالك مروان نفسه وركض مسافة طويلة على طول الشاطئ وهو يصرخ فرحا وعاد بسرعة كبيرة ليتأكد منها أنه لم يخطأ في فهم كلامها. لم يصدق أنها أحبته كما أحبها وكان سعيدا لكونه أخيرا حصل على فرصة تكوين أسرة سيناضل كي يجعلها سعيدة، ويملأ

حياته ببحر هائج من الحب والحنان. كانت سعادتها أكبر وهي تحس لأول مرة أن لديها حرية اختيار شيء واتخاذ القرار في حياتها. لم تعد مضطرة أن ترضي أحدا بإخفاء هويّتها فقد ولدت كأنثى وستعيش أخيرا كأنثى من المحظوظات لحصولها على ما تتمناه الكثير من النساء، رجل يمنحها الحب والحنان والأمان.

تم عقد القران في القلعة ووثّق في رقعة قرطاس كانت من بين بعض الرقع التي وجدها أحمد في غرفته في القصر، خط الشيخ عبد السلام العقد بنفسه وشهد عليه أحمد وعمر وكان الأستاذ هارون هو وليّها. وهكذا بعد أقل من شهر على تواجدهم هنا تم أول عقد قران في القلعة. أَجّل الزفاف إلى أجل غير محدد، فكثرة الموتى الذين قضوا في الآونة الأخيرة تجعله حاليا غير لائق. ظل بعدها هذان الحبيبان قريبين وبعيدين عن بعضهما البعض مدة من الزمن راضيين بقليل من الحب والحنان.

سوف أعود يوما أمي

قد تكون أثار المرض قد اختفت من أجساد المنبوذين، ولكن الآثار النفسية بدأت تتفاقم. فمنذ حِلهم بهذا المكان والكثيرون يرون أحلاما وكوابيس عن عائلاتهم وحياتهم السابقة، وحتى عن مخاوفهم من هذه الأرض. مع غيبة عمر عنها معظم الليالي ونومه سريعا في أجزاء الليالي التي لا يحرس فيها، تنام عاتكة وحيدة مع حنينها لماضيها. ذلك الماضي الذي تارة تراه أحلاما وردية وهي في حضن والدتها، وتارة أخرى تراه كوابيس تودعها فيها بينما تسقط من أعلى هاوية سحيقة، أو توصد عليها أبواب سجن مظلم. ازدادت وتيرتها منذ وصل عدي سيد الذي كان بالنسبة لها كابوسا بحد ذاته. كانت تصرخ كلّما حلمت بتلك الكوابيس ويستيقظ عمر ليهدئها ويعيدها إلى النوم كطفلة صغيرة أو بالأحرى كأخت صغيرة. وفي غيابه، تستيقظ مفزوعة تسترجع ذكرياتها الحزينة وتظل تبكي وتدعو حتى تخلد إلى النوم.

قلّت وتيرة أحلام سعاد المزعجة التي لازمتها منذ وصلت، إذ كانت ترى نفسها في سجن موصد عليها مكبلة بأصفاد تفرح بينما تضعها وكأن حريتها في سجنها وأصفادها. بعد عقد قرانها قلَّت تلك الكوابيس وبدأت ترى قصورا بدلاً من سجون، وورودا وحليًّا بدلاً أصفاد. عاشت على أمل أن تتحرر كليا من كوابيسها بعد أن يحين الوقت المناسب وتجتمع هي ومروان ويحول كوابيسها إلى أحلام وردية

يكسر فيها قيودها. لم تحكِ لأحد عن أحلامها تلك ما عدا لأسماء رفيقتها في الغرفة والتي تشاركها ماضيها، رغم أن هذه الأخيرة لم تشارك أحدا ماضيها وسرها الكبير.

أمّا أحمد فقد كان يشغل نفسه بالعمل وقراءة الكتب التي يستخرج منها ما يفيد الباقين في أعمالهم، ككتب الطب والهندسة والفلسفة وغيرها كي لا يحلم. يحاول بأقصى ما بإمكانه أن يهرب من أحلام يقظته والتي يتعذب كلما فارقته ويتعذب كلما لازمته. تلك الأحلام الوردية والمحزنة في نفس الوقت، والتي تكون بطلتها هي فتاته التي يحبها منذ أمد بعيد، التي يئس منذ زمن من الحصول عليها. وبينما كان الحب يقض مضجع أحمد كان اليتم المبكر يضني لبنى وليلى اللتان تكادان لا تنسيان ماضيهما المحزن رغم مضي مدة عليه. لا تحتاجان للأحلام حتى تتذكرا ألامهما وأحزانهما فهي تلازمهما كل الوقت. حالهما كحال مُؤنِس، فحتى بعد تخلصه من أثار المخدرات، لم يتخلص بعد من ذكرياته حين كان مشردا في الشارع بعد أن فقد كل شيء كان يحتاجه في سنه الصغيرة تلك. لازمته الأحلام الموحشة عن أيامه الغابرة والتي لطالما كان يتمنى لو تنجلي غمتها ويرى النور من جديد في حياته.

أمّا عمر فهو يتقلب على الجمر بين عذابه بسبب سر يخفيه والذي يبعده أكثر عن عاتكة وبين عذابه وحزنه لتسببه في جزء من عذابها بزواجه منها دون أن يستطيع حبَّها. لكن هؤلاء وأولئك من الناضجين والكبار أشد قدرة على الصبر من الصغار كأسامة وغيره اللذين لم يستوعبوا بعد أنهم سجناء في هذه الأرض المفقودة.

منذ أيام والطفل أسامة يغيب لساعات ولا يعود إلا في وقت متأخر كل يوم دون أن يخبر أحدا. كان يعود منهكا ويرتاح لساعات

قبل أن يحمل لوح الشطرنج الذي يقترضه ويبحث عمّن يشاركه اللعب وأحيانا كان لا يجد أحدا. ذات يوم وضع لوح الشطرنج ورتب البيادق وأخذ يلعب وحده وكأنه يلاعب شخصا آخر وهو يقول:

– "هذا دورك .... أنا الفائز، أنتِ لم تفوزي".

سمعت السيدة رملة التي جاءت للاطمئنان عليه ككل مساء هذه الكلمات، وظنّت أن هناك من يشاركه اللعب قبل أن تدخل الغرفة وتصدم بما رأت. عندما دخلت اكتشفت أنه كان يلاعب نفسه، سألته وهي تخفي قلقها واستغرابها:

– "مع من تلعب يا بني؟"

– أجاب بابتسامة بريئة: "مع أمي"

– قالت "ولكن لا يوجد أحد في الغرفة غيرك"

– أشار إلى المكان المقابل له وقال "إنها موجودة لكنك لا ترينها أنا وحدي من يراها وهي تبتسم الآن"

– قالت بابتسامة مشوشة "بلّغها سلامي"

– رد عليها قائلا: "أجل طبعا". وخرجت من فورها مذعورة.

بعد ساعة دخل نبيل الغرفة ووجده على الحال التي وصفتها السيدة رملة، التي قابلها بعدما عاد من الخارج. ثم قال له:

– "كيف حالك أسامة؟"

– أجاب بابتسامة جميلة لا يراها نبيل كثيرا "أنا بخير"

– قال نبيل "ما رأيك أن أهزمك قليلا في اللعب

– " أجاب "بل أنا من سيهزمك ... هيا نلعب".

ظلّا يلعبان حتى أذّن المغرب واستطاع نبيل بصعوبة إقناع أسامة أن يرافقه إلى الصلاة في المسجد، والذي هو أحد قاعات القصر، وهكذا استطاع تخليصه من طيف أمه. عرف قادة المنبوذين بما يحدث

معه، وفطنوا لمشكلة كانوا يتجنبون التفكير فيها. تلك المشكلة التي وقعوا فيها جميعا وهي حالة الضياع بين الماضي والحاضر. داء صعب علاجه لكنّهم على الأقل يمكن أن يساعدوا الصغار على تجاوزه، وقرروا أن يبدؤوا بأسامة.

في الصباح غادر أسامة كعادته متسللا، تعقبه نبيل خلسة وأخذ يتخفى وراء الأشجار. توقف بعد ساعات من المشي وأخذ يلتقط أحجارا ذات ألوان داكنة من الشاطئ. بعد أن ملأ الحقيبة التي كان يحملها، عاد أدراجه إلى أن اقترب من القلعة ودفن الأحجار تحت الرمال وعاد. ظلّ نبيل يراقبه إلى أن عاد إلى القلعة ودخل غرفته، ثم ذهب إلى عاتكة وأسماء وأحمد وعمر الذين كانوا ينتظرونه قرب المشتل. حكى لهم كل شيء كما رآه وبعد أن انتهى قالت عاتكة مستغربة:

– "لماذا يتكبد هذا العناء لجمع الأحجار؟"

– أجاب أحمد قائلا "لأجل النجدة".

– استغرب الجميع مما قال وأردف أحمد قائلا: "لأجل كتابة كلمة النجدة كما كان يريد مروان قبل أن يتخلى عن الفكرة"

– قال مروان مبتسما "أردتها لأسعد سعاد والآن أنا أستطيع إسعادها دون البحث عن المستحيل"

– قالت عاتكة "ربما لأنه يعلم أن لا شيء مستحيل، بخلافنا نحن الذين بدأنا نستسلم منذ علمنا أن هذه الأرض لا تُرى من على الطائرات".

قالت هذا بنبرة حزن لأنها تذكرت حالها أيضا، فهي قد تكون أشد منه رغبة في العودة إلى الديار. لكنها ناضجة كفاية كي تستطيع تخطي ألمها لفراقها والدتها وشوقها إليها وتتحمل الآثار النفسية للوضع

الذي هم فيه. أمّا أسامة وغيره من الأطفال فصعب أن يستوعبوا أنهم عليهم نسيان أهلهم وماضيهم والبدء من جديد.
في المساء توجهت عاتكة إلى أسامة واستطاعت إقناعه أن يكلمها خارج غرفته، قالت له بعد أن جلسا في الساحة:
– "لا بد أن أمك حزينة جدا"
– أخذ يحدق بها لدقائق وقال "لماذا ... بسبب فراقي؟"
– قالت "لأنه لا يوجد من يعتني بك كما كانت تفعل"
– قال " سوف أعود إليها وسوف تعتني بي "
– قالت "حتى ذلك الحين سوف تبقى حزينة".
طأطأ رأسه للحظات بينما نظرت عاتكة للسيدة رملة وهي عائدة إلى غرفتها من غرفة تخزين الطعام وقالت:
– "لو كنتُ أصغر بقليل وكان عليّ أن أختار أمّا لاخترت السيدة رملة، لديها ابن بسنك وتستطيع الاعتناء بآخر"
– رفع رأسه ونظر إليها قائلا: "لو كنت أصغر بقليل لكنت اخترتك أنت أمّا"
ابتسمت وهي تتأمل بريق عينيه وقالت "السيدة رملة مناسبة؟"
– أجاب "أجل إلى أن أعود إلى أمي"
– قالت "اتفقنا".

لكنّ الطفل أسامة لم يكن الوحيد الذي يشكل مصدر قلق، فبعد يومين حدثت حادثة هزت قلوب المنبوذين. فقد رأى الحراس فوق سور القلعة المطل على البحر منال، إحدى "المدللين"، وهي تصعد حافة السور. صرخوا بأعلى أصواتهم ينادونها ويحذرونها من الوقوع لكنها لم تكترث بهم. ركضت أسماء نحوها محاولة تهدئتها بعدما أدرك الكثيرون أنها تريد الانتحار. فلم تستطيع تحمل بقاءها في هذا

المكان وفكرة أنها ستعيش هنا إلى الأبد. ظلّت أسماء تستدرجها في الكلام وتجاريها حتى استطاع أدهم التسلل والإمساك بها. انهارت بالبكاء بعدما نزلت وقالت لأسماء:

– "النبذ هو مصيرنا لن نجد من يرحمنا هنا، سوف نعامل من جديد كالذّباب سترين هذا".

طلبت من الكل تركها وشأنها وعادت إلى غرفتها. لم يعرف أحد سببا محددا لمحاولتها الانتحار غير السبب الذي يجمعهم، وهو النبذ في هذا المكان البعيد مع نمط العيش الصّعب. شدّد عمر الحراسة على الأسوار ومنع أي شخص باستثناء الحراس من الصعود إليها بدون أخذ إذنٍ. فحالة منال لن تكون الأخيرة التي ستحاول إنهاء هذه المعاناة من بين هؤلاء المنبوذين الذين تخلصوا من آثار المرض لكن ليس من أثر النبذ.

مرّت أيام وبدأ أسامة يقلل من فترة غيابه عن القلعة، ويقضي الوقت في مساعدة السيدة رملة والدراسة ولعب الشطرنج معها ومع السيد رؤوف، ونسي أو تناسى أمر جمع الأحجار. ذات صباح طلبت عاتكة منه مرافقتها إلى الشاطئ. بعد نصف ساعة من المشي توقفت عن المشي وقالت له:

– "أغمض عينيك ولا تفتحهما حتى أطلب منك".

– فعل ما طلبته منه وسار برفقتها أميالا ثم توقفا وقالت: "افتح عينيك".

فتح أسامة عينيه ووجد نبيل برفقة أحمد ومروان وأسماء والسيد رؤوف الرملي مصطفّين أمامه. تنحّوا كي يرى المفاجأة التي جهزوها: كلمة النجدة مكتوبة. فرح أسامة كثيرا وأخذ يتتبع الكلمة ويقرأها وهو يقول:

– "سوف أعود قريبا أمي".
– قالت عاتكة، بعد أن اطمأَنت أيضا لإكمال كتابة الكلمة، بصوت منخفض "أنا أيضا سوف أعود يوما أمي".
أمّا أحمد فقد نظر إليهما وهما في قمة السعادة وقال في قرارة نفسه
– "ليتني أستطيع أن أقول لكِ سوف أعود يوما أمي".

فبعض المنبوذين لم يعد لديهم أحد يعودون إليه أو يشتاقون إليه في أوطانهم سوى قبور أحبائهم. كأحمد والطفلة ربى ابنة السيد مسعود، والتي توفيت أمها منذ زمن وتركتها بين يدي والدها الذي كان يدللها ويعتني بها حتى صارت كلمتها أقوى من كلمته ورأيها يسبق رأيه في كثير من الأحيان. فقد لاحظ الكل أنها أقوى وأذكى طفلة من بين الجميع حتى أنها رغم انضمامها للمدللين، تساعد من حين إلى حين العمال وتحاول مصادقة بعضهم كأسماء وعاتكة. تتعلم ما تستطيع تعلمه وتعيش وكأنها ولدت هنا، لا نبذت هنا.

باستثناء محاولة انتحار منال فقد مر هذا اليوم كغيره منذ وصول الطائرات الأخيرة لا يحمل جديدا سوى المشاعر المتضاربة للكثير من المنبوذين الذين سيطر عليهم الحنين لعائلاتهم كطاهر. ففي المساء قبل غروب الشمس بساعة ذهب خلسة نحو الشاطئ وتفقد الكلمة التي كتبت وقال:
– "لو كنت طفلا لكنت فعلت مثل أسامة أو أكثر" ثم نظر باتجاه البحر وقال:
"أعلم أنكِ قوية وأنك ستصمدين إلى أن نلتقي، ادعي لي بالتوفيق، سوف أعود يوما يا أمي".

انتهى عهد الدّلال

انقضى أكثر من شهر ونصف على وجود الناجين المنبوذين في هذا المكان، الذي ما يزال يشكل لغزا كبيرا ومعقّدا بالنسبة إليهم. ألقوا حيرتهم وراء ظهورهم وتوقفوا عن التفكير في غرابة هذا العالم المختفي عن الأنظار، وغرقوا في حياتهم الجديدة. نجح الأستاذ هارون بمساعدة من إبراهيم وعبد المعطي ومروان وفؤاد بقراءة الساعة الشمسية وتعلم استعمال البوصلة والاسطرلاب، واستطاعوا إصلاح بعض الآلات التي وجدوها، وصار كل مشرف يمتلك ساعة محمولة يضبط وقت العمل بها.

نسي المنبوذون اتكالهم على الساعة الرقمية والمحمول والكثير من لوازم التكنولوجيا وبدؤوا يعتادون على الاعتماد على الشمس والقمر وسواعدهم وعقولهم كي يعيشوا في هذا المكان. تلاشت عند بعضهم الآمال في العودة إلى ديارهم، وسلّموا بأن هذا المكان وهذه الحياة قدرهم حتى المماة.

لم يتوقف عمر ومن معه من خلية النحل عن العمل منذ أن وصلوا، تخلوا عن أوقات استجمامهم، فتجهيز ظروف عيش مناسبة وتوفير طعام يكفيهم طيلة فصل الشتاء الذي أخذ بالاقتراب كان هاجسهم. فصل شتاء مجهول المعالم بالنسبة إليهم لأنّ الأرض التي يعيشون عليها لا يعرفون نوع فصولها ولا مدتها. الكثير منهم يتمنون لو تتوفر لديهم أوقات أطول يستجمون فيها ويرتاحون من تعب دام

طويلا مع تراكم العمل يوما بعد يوم، وسط هذه الحياة التي لم يألفوها. فمنذ أسبوع وعاتكة تنتظر أن يصطحبها زوجها عمر في رحلة إلى الشاطئ كما وعدها، كي ينعما بلحظات يجتمعان فيها ويتبادلان أطراف الحديث في جلسة طويلة بعيدا عن هموم العمل والعيش. فمنذ أن التقيا لم يتسنَّ لهما معرفة الكثير عن بعضهما البعض إلا ما يعرفه الآخرون عنهما. لم تفلح محاولاتهما توفير تلك الفرصة، فهو يساعد الصيادين، ويشرف على توزيع الطعام، ويساعد في البحث عن كيفية تطوير عيشهم، وضمان قدرتهم على الاستمرار في هذا العالم الجديد والغريب، وهي تعمل في الحقل والعيادة والمشتل. ومع مضي الوقت وتعوُّدها أنها امرأة متزوجة لم تتذكر أنها ما تزال عذراء إلا عندما عرفت أن إحدى المدللات قد حبلت.

ذكرها حنينها ورغبتها بأن تكون أمًّا بأنوثتها التي أهملتها وجعلها تكره دور الراهبة الذي تلعبه، وتتمنى لو تكسر الحواجز الوهمية التي بينهما وتحصل على فرصة أن تكون زوجة، لكن رغبتها تلك ظلّت حبيسة وِجدانها. كان هذا حال الكثير من الأزواج من سكان الجهة اليمنى، يشغل العمل معظم وقتهم ولا يتسنى لهم وقت كاف لإرضاء مشاعرهم. كذلك العزاب افتقدوا للحظات راحة واستجمام يستمتعون فيها بجمال المكان الذي يعيشون فيه ويحاولون اختيار شركاء حياتهم.

بينما يتخلى العمال عن راحتهم لتحسين ظروف العيش اعتاد جيرانهم سكان الجهة الأخرى الخمول والاتكال. بدأت مهامهم البسيطة والتي لا تتعدى عند بعضهم تنظيف بيته أو نقل الطعام للمرضى وغيرها من الأعمال التي لا تأخذ من وقتهم ما تأخذه تناول وجبات طعام، بدأت تثقل كاهلهم، خاصة مع تعود بعضهم على

وجود من يقوم بها عنه من المتملقين اللذين يرضون ببعض الثمار المزروعة في شرفات بعض المدللين مقابل خدمتهم. لكنّ هذا لم يكفهم، فقد حظي الكثير منهم بفرصة أن يصبح سيدا في مجتمع قيد الإنشاء عليه أن يغتنمها حتى لا ينبذ كما نبذ من قبل. إما أن تكون عاملا، إما قائدا، إما مشرفا، هكذا قسموا المجتمع وقرر كل منهم في قرارة نفسه وبين بعضهم البعض أن يكونوا على رأسه. هذا المجتمع سيكبر يوما ما ويتماسك وإن لم يكن لهم مكان مناسب فيه سيعتبرون منبوذين غير مرغوب فيهم وستتحول حياتهم إلى أسوء مما كانت عليه قبل الوباء.

توجه الكثيرون إلى حيدرة الذي لم يكن يضيع فرصة لإيقاظ المخاوف في قلوبهم من أن يتحولوا إلى خدم لعُمَر الذي يملك معظم موارد الطعام. طلبوا منه أن يفكر لهم في حل ليعيشوا بهناء ورخاء ويفرضوا سلطتهم في القلعة، ويكفوا عن الخوف من عمر ومن معه. أما حيدرة فقد كان جاهزا سلفا وانتظر وصول الوضع إلى هذا الحد الذي سعى إليه وفكر مسبقا في الحل.

هذا الحل الذي خطر بباله سيجعل جيرانهم يتعودون على خدمتهم وينسون تدريجيا حتى سبب تحولهم إلى خدم (وتصير خدمتهم لهم أمرا واقعا ومفروضا، تفرضه العادة وتفاضل المسكن والملبس، الشيء الوحيد الذي يميز المدللين). لكنه كتمه عن الكثيرين خوفا من سماع عمر به وبدأ بتنفيذ الخطة بسرية.

من بين من أشركهم في تنفيذها، السيد مسعود الذي كان يكلف أسامة بتنظيف غرفته وقضاء حوائجه مقابل إقراضه لوح الشطرنج الذي يملكه كما اعتاد. ذات يوم بينما الطفل ينظف الغرفة بعد أن تناول مسعود طعام غذائه ونام، أوقع زهرية من الفخار على الأرض

وتهشمت عن آخرها. استيقظ مسعود مذعورا من نومه وما كان به عندما رأى الزهرية مكسورة إلا أن ضرب أسامة ضربا مبرحا حتى سمع صراخه في ساحة القلعة.

ركض عمر وأحمد ونبيل إلى الغرفة وصادفوا الطفل عند الباب بعد أن استطاع التملص من قبضة مسعود الذي لحقه إلى هناك، وقبل أن يتلفظ الرجل بكلمة واحدة تلقى ضربة من نبيل سقط على إثرها أرضا. استطاع أحمد وعمر منع نبيل من الاستمرار في ضربه بصعوبه، وحذّره عمر من استغلال أي طفل مرة أخرى وإلا سيكون في المرة القادمة من سيبرحه ضربا. صرخ مسعود في وجه عمر قائلا:

– "وما شأنك أنت هل أنت والده؟"

– ردّ عمر قائلا "اعتبرني كذلك"

– رد عليه مسعود بلهجة غاضبة قائلا "إن أردت أولادا أحضرهم من زوجتك .... أم أحدكما عاقر"

قال أحمد بصوت قوي اهتزت له الغرفة:

– "هذا ليس من شأنك، وأمامك حلان إما أن تصمت وتنفذ، إما لا طعام لك بعد اليوم وستضطر لجلبه بنفسك وتكف عن ادعاء المرض".

همست رُبى التي وصلت منذ لحظات في أُذن والدها لتقنعه بالصمت، فقد كانت قد تعبت من محاولاتها إقناعه بعدم استغلال أسامة والبقاء على حياد بين حيدرة وعمر. صمت مسعود وهو لا يدري كيف ينقذ ماء وجهه ويرد على أحمد، وفي نفس الوقت يحتفظ بحصة من الطعام.

في المساء جلس أسامة وحده حزينا أمام غرفته، اقتربت منه عاتكة وجلست بقربه وسألته بعد أن اطمأنت أنه غير منزعج من وجودها:

– "لماذا كنت تخدمه وتحملت شتائمه طوال هذا الوقت؟".
– أجاب قائلا "لأجل لعبة الشطرنج التي يقرضني إياها ... إنها تذكرني بأمي"
– ردت عاتكة عليه قائلة "لست محتاجا للعبة لتتذكرها إنها بقلبك كما أمّي بقلبي وما زلت أذكرها".
– نظر إليها باستغراب وقال "هل حرمت من أمّك أيضا؟"
– أجابت "نعم"
– ثم أضاف "ولكنك لست صغيرة في السّن"
– ردّت بابتسامة "حرمت منها في سن صغيرة كنت أحتاجها فيها أكثر من أي وقت آخر".
صمتت قليلا وقد بدت عليها علامات الحزن، وكادت ترحل من جديد إلى ماضيها، ولكنها استيقظت مبتسمة ثم تابعت قائلة:
– "هيا الآن ادخل غرفتك لترتاح".
دخل الطفل إلى فراشه كما طلبت منه لعلّه ينام ناسيا جرح قلبه وجرح جسده. في تلك الليلة المظلمة والتي لا يكاد يرى فيها غير نور بعض المشاعل على أركان أسوار القلعة وقف عمر يحدق باتجاه البحر ويسمع صوته لعله يتخلص من حزنه. دنا أحمد منه وقال:
– "ما زلت منزعجا من كلام مسعود"
– قال عمر "كان لدي ابنٌ من قبل، أحببته كثيرا كما أحببت والدته وفقدته كما فقدتها ... لقد ذكّرني بهذا"
– قال أحمد "كفّ عن النظر إلى الماضي فمستقبلنا هو الأهم الآن"
– قال عمر "أتمنى لو أستطيع أحمد، لكن هناك أشياء تلاحق الإنسان في حاضره وغده أيضا وتأبى أن تتركه"
– قال أحمد "انسها وعش بسعادة".

تمنى أحمد لو يستطيع أن يجعله يلقي بكل شيء وراء ظهره ويعيش بسعادة، السعادة التي لم يعد يتمنّاها لنفسه.

عند زوال اليوم التالي دخل نبيل غرفة أسامة فوجده ما يزال ممددا على فراشه، وهو يحمل لوح خشب معه وحقيبة صغيرة، وضعهما على الطاولة قرب فراش أسامة وقال:

– "انظر لقد أحضرت لك هدية".

بعد أن فتحها أسامة، وجد بها أشكال بيادق الشطرنح مصنوعة من خشب ولوحها مزكش بشكل جميل. فرح الطفل باللوح كثيرا وخرج من غرفته يبحث عمّن يشاركه اللعب. أقبلت عاتكة على نبيل وسألته قائلة:

– "كيف صنعته ... هل تجيد النجارة؟"

– فأجاب متذمرا "أنت وأسئلتك .... لا أجيد النجارة صنعه طاهر وباقي النجارين"

– ردّت "هذا جيد"

– فردّ عليها قائلا "لكنهم أرغموني على وعدهم بأني سأعمل معهم مدة شهر كامل في صنع القارب".

غادر نبيل بينما ابتسمت عاتكة فرحا مما أثار استغراب فيروز الفضولية وأسماء وأقبلتا عليها لتعرفا السبب فردت قائلة:

– "على الأقل لمدة شهر هو في صفنا كليا، فلولا حبه لأسامة لكان انضم للمدللين وخسرنا عاملا قويا ومخلصا مثله ... استغل طاهر الفرصة بذكاء".

بعد يومين فقط على ما حدث مع أسامة، حدث أمر آخر. فقد كانت غالية ناصحي منذ مدة قد بدأت تحوم حول سحر، أقنعتها أنها عجوز تعاني من مشكلة في قدميها وطلبت منها أن تقوم

بتدليكهما لعل الألم يخف عنها. رقّت سحر الطيبة لحال تلك المرأة وبدأت تزورها كل يوم وتقوم بتدليك قدميها ما يقارب الساعة. استمر الوضع أياما هكذا حتى بدأت تطلب منها إطالة جلسات التدليك غير مراعية لكون المسكينة تجلس على الأرض مدة طويلة حتى تؤلمها رجلاها. كانت غالية تدعو صديقاتها ليتسامرن معها، وتتخلل أحاديثهن كلمات أو عبارات ساخرة من جيرانهم العمال باستعمال الألغاز والغمز مستغلين وضعها.

كنّ يتفرجن على الفتاة المسكينة وقد تحولت إلى خادمة دون أن تدرك الأمر، فقد استغلت غالية المتعالية شفقتها عليها وبدأت تكلفها بالقيام حتى بأعمال تنظيف وترتيب الشقة، بينما لم تكن تقوم هي إلا بالمساعدة بتوزيع الطعام على بعض المدللين مخفية هويتها عن سحر. ذات يوم لاحظت أسماء تألم سحر ووهنها رغم أنهم لا يكلفونها بأعمال متعبة، وعندما ألحت عليها بالسؤال، أخبرتها أنها تقوم بمساعدة امرأة عجوز مريضة من سكان الجهة الأخرى.

أخبرت أسماء عاتكةَ التي تعلم بعدم وجود امرأة عجوز ومريضة من بينهم. ولم تتعب عاتكة في معرفة مكان سحر فقد أخبرتها فيروز به، فقررت الذهاب لتتفقد الأمر بنفسها. صعدت الدرج بعجلة وما إن رأتها إحدى صديقات غالية حتى ركضت نحوها محاولة منعها من الاقتراب من غرفتها، لكن عاتكة لم تبالي بها ومرّت. طرقت الباب وهي تنادي قائلة:

– "سحر هل أنت هنا؟".

جعلت الجلبة التي أحدثتها صديقة غالية محاولةً ردع عاتكة الكثيرين من سكان الجهتين يجتمعون. اضطرت عندها المرأة لفتح الباب بعد ضغط من سحر التي استغربت محاولة إخفاء غالية لها. عندما فُتح

الباب طلبت عاتكة من سحر أن تخبر الجميع عن ما تكلفها غالية به. ارتبكت سحر قليلا إذ لا تعلم ما الذي يدور حولها، حاولت غالية منعها من الكلام، ولكنها اعترفت بكل شيء عندما علمت أنها كانت تخدعها. حذّرت عاتكة أي شخص من محاولة استغلال الشابة المسكينة من جديد أو إيذاءها بأي شكل من الأشكال، كان هذا بحضور حيدرة الذي عرف اليوم أي نوع من الناس في صفه وأن مخططاته المستقبلية في السيطرة تلقى ترحيبا من قبل الكثير من المدللين، لكنه عرف أيضا أن قادة هؤلاء العمال مستيقظون وحذرون وأذكياء وأنه سيجد صعوبة بوجودهم، ممّا جعله يشرع في التفكير في كيفية التخلص من سلطتهم أو منهم.

لم تكن هذه الخدعة الوحيدة التي يتعرض لها سكان جهة البحر، فقد اختفت تدريجيا عبارات من فضلك، جزاك الله خيرا، وشكرا من كلام حيدرة وأصحابه عندما يريدون شيئا أو يتلقون طعاما. بدأت معاملتهم تصبح أقرب للأوامر منها للطلب، وللوقاحة عوض الامتنان والتقدير.

من بين من تعبوا لعدم توفرهم على لحظات راحة، هو طاهر الذي لام نفسه لانشغاله عن مراقبة سحر حتى تم استغلالها. بعد ما حدث لها ظل يومين كاملين يواسيها ويراقبها ويحرسها خوفا من أن تقع ضحية شخص آخر. لكن ليس الاستغلال فقط هو ما يجب عليهم أن يخافوا منه، بل أيضا أعدائهم المجهولين المختفين في مكان ما. أعدائهم اللذين يعلمون جيدا أنهم سوف يَظهرون يوما ما ويُظهرون نواياهم وعليهم أن يبقوا متحدين بينهم حتى يقدروا على مواجهتهم. فأي شقاق بين المدللين والعمال سيضعفهم أكثر.

فذات يوم بينما يتوجه الصيادون والحطابون إلى الشاطئ رأوا منظرا اهتزت له القلعة كلها. رأوا جثتي رجلين من الوافدين الجدد مُنكّل بهما وموضوعة في وضعية الجلوس في الصلاة. كان منظرا مفزعا اجتمع له كل سكان القلعة الذين عاد الكثير منهم أدراجه القهقرى مذعورا ليختبئ هناك. لم يلاحظ البارحة اختفاء الرجلين اللذين اكتشفوا أنهما غادراها باكرا. بعد طول بحث علموا أنهما أخذا الفراش الذي كانا ينامان عليه، لذلك لم يُلاحظ غيابهما من القاعة الكبيرة في القصر. تأكدّوا أنهما حاولا مغادرة القلعة وربما توغلا في الغابة مما جعلهما يقعان ضحية القتلة.

تردد الكثيرون بعد انتهاء التحقيق في المضي قدما ومتابعة عملهم، لكن عمر وأحمد ومروان وأدهم ومُؤنِس ونبيل وعامر صاحب الخال، الذي كان مترددا لولا وجود حبيبته في المكان، تقدموا وحملوا الجثتين وتابعوا طريقهم نحو السفح. تبعهم الكثيرون بعدها رغم خوفهم من أن يلقوا نفس المصير، فالذين قتلوا هذين سيجدون سبيلا لينالوا منهم أيضا حتى وإن لم يدخلوا الغابة. لكنهم قرروا الاستمرار في العمل لأن الموت سينال منهم إن لم يعملوا كي يعيشوا. لم يعد أحد يغادر القلعة إلا مع جموع العمال ويعود معهم إلا قليلون كعمر وأحمد. قرب الحقل وُجد الفراش الذي أخذوه، مُلقى به هناك وقد وجدوا معه بعض الجواهر الثمينة. تأكدوا من أنهما سارقين أرادا أن يغنما ويفرا وظنّا أنهما يمكن أن يجدا ملاذا ويعيشا بما سرقاه عيشة مرفّهة. لم يصدقا أن هذه الأرض منعزلة عن العالم، لا يحكمها قانونه وكل ما عهدوه هناك لا مكان له هنا. وأن الشيء الوحيد الثابت والمشترك مع عالمهم هو طبائع البشر، فلم يردعهما النبذ وقساوة العيش هنا من الاستمرار في خبثهما مثلهما مثل الكثيرين ممن طغت

نفوسهم الخبيثة عليهم وغلب الطمع عليها. لكن هذه الحادثة أيقظت أصدقائنا وجعلتهم يرون ما حجبهم كثرة العمل وسوء الحال والانشغال عن رؤيته، أنهم أكباش فداء لغيرهم.

كانت حادثة الموت هذه هي التي نبّهت الكثيرين لوضعهم الذي صاروا عليه، مجرد بيادق. طفح كيل العمال والصيادين وباقي سكان الجهة اليسرى من تحكمات المدللين بهم، عقد عمر، مروان، أحمد، الشيخ عبد السلام، عاتكة، طاهر، أسماء والأستاذ هارون والدكتور أكرم اجتماعا ليتدارسوا الوضع. بعد انتهائهم من هذا اللقاء الذي كان مغلقا عليهم خرجوا بقرار نهائي: "منع الطعام عن سكان الجهة الشرقية ما لم يعملوا لكسب قوتهم مثلهم مثل الباقين". تم إعلان القرار وتنفيذه بعد يومين، ووجد المدللون أنفسهم مضطرين للعمل، وبما أنه لم يكن بينهم شخص عاجز، منع الطعام على الكل ما عدا الشيخ عبد الهادي الذي كان يساعد الشيخ عبد السلام في تعليم الأطفال. استثنيت الممرضة نسرين أيضا بحكم مساعدتها لأسماء وعاتكة في معالجة المرضى رغم انعزالها معظم الوقت. وبسام وربى ابنة السيد مسعود والسيدتان الحوامل اللتان لا تنتميان للمدللين رغم عيشهما هناك. تذكر المدلّلون أن ما يملكه العمال هو أهم مما يملكونه هم، فهم يملكون ضروريات الحياة التي لا يعوضها حرير أو ديباج، الطعام والماء. انتهى عهد الدلال بالنسبة للمدللين، وعزّ على عمر ومن معه أنهم اضطروا لاستعمال الطعام كوسيلة للتهديد لاستعادة حريتهم التي سُلب جزء منها، من بين براثن من حاولوا استغلالهم بعد أن كانوا شركائهم في مصيرهم كمنبوذين.

غيرته شروط فرضت عليه

لاغيا كلمة الخوف من قلبه، وغير مكترث لخطورة الطريق التي يسلكها، توغل عمر الناجي في الغابة قليلا. اختفى عن الأنظار عازلا نفسه عن كل من حوله حتى عن زوجته التي كانت بالحقل وعن صديقه أحمد، الذي كان يتدرب على القتال بالعصي مع مروان، وعن كل من اعتادوا وجوده في كل مكان يتفقد كل شيء. صعد فوق شجرة وأخذ يتأمل وحشة الغابة وسكونها مسترجعا سلسلة من الأنوار والظلمات التي مرت على قلبه وروحه خلال حياته.

عمر، ذلك الفتى الغني المدلل الذي تعلم كيف يصرف المال قبل أن يتعلم الكلام، تاه في متاهات الدنيا وانكب على متاعها غير عابئ بما يمكن أن تؤول إليه الأحوال في ما سيأتي من الأيام.

نسي أن في الحياة أشياء أهمّ من التمتع بالملذات والتنعم بالشهوات. كان السيد عمر الناجي من عائلة ميسورة، ذات مال وجاه وعند كل الناس مشهورة، كلمتها مسموعة وطلباتها عند أبوابها موضوعة. لا يتذكر كم طرد من الخدم والموظفين لأسباب واهية، ولا كم أهان من المساكين عندما كانوا يسألونه بعض ما فاض عليه من مال. كان عمر الناجي مستهترا، ومتعجرفا، زاد من سوء أخلاقه الدلال الذي تربي عليه وعدم وجود من يرشده وينهاه إن أخطأ ويدلّه على الصواب.

كان الزنا هو الشيء الوحيد الذي لم يجرأ على القيام به خوفا على سمعة عائلته العريقة، والتي تتباهى باحترامها للتقاليد. رغم ذكائه كان يتلقى دروسا منزلية في جميع المجالات والمواد كي يكون متفوقا على كل زملائه، مما زاد غروره واعتداده بنفسه. بعد أن أنهى دراسته التحق بإلحاح من والده الذي كان يملك مجموعة شركات، بمدرسة لدراسة فن الإدارة والتسويق كي يستطيع إدارة بعض أعماله.

لكن دوام الحال من المحال ولكل شيء أوان، وهذا الفتى المدلل سيصبح رجلا ناضجا، عاقلا وحكيما بسبب ثلاثة شروط وثلاث أشخاص. الأولى كانت فتاة أعجب بها في منتصف سنته الدراسية الثانية وحاول لفت نظرها بشتى الطرق، ولكنها لم تعره اهتماما، بل وأخبرته مرة أنه لا يساوي شيئا في نظرها وأنها تفضل شخصا فقيرا شرط أن يكون رجلا حقيقيا. أخذ يتساءل ما معنى رجل حقيقي وماذا يملك زيادة عن ما يملكه هو، وغاظه أنها رفضت أن تكلمه وقد نزل من فوق عرشه وكلمها.

كانت روح التحدي لديه كبيرة وقرّر أن يوقعها في حبه ويتخلى عنها فيما بعد. بعد عدة محاولات وافقت على قبوله كزوج لكن بعد أن ينفذ شروطها كلها. اشترطت عليه أن يعمل في عمل بسيط في العطلة الصيفية وستحدده هي بنفسها. بما أن هذا كان السبيل الوحيد للوصول إلى قلبها، ومع إصرارها وعنادها قبل بشرطها هذا. أخذته إلى مشرف على البناء كان صديقا لوالدها وبدأ العمل معه. كان يرتدي ملابس بسيطة على غير عادته، وكان عليه أن يعمل طوال اليوم حسب الاتفاق الذي بينهما ويتعلم الحرفة جيدا. خلال فترة الدراسة كانت تشترط عليه إن أراد أن يراها أو يكلمها أن يقرأ كتبا من اختيارها ويفهمها ويناقشها معها في أثناء لقائهما.

كانت كتبا عن الدين والأدب والفلسفة والتاريخ والعلوم وغيرها، وكان عليه أن يكمل كتابين منها كل شهر. لا يعرف كيف ارتبط بها ولا كيف انصاع لرغباتها ولا كيف صار فجأة ومع مرور الشهور يحبها، بل وبدأ يحب كل شيء مرتبط بها حتى الكتب. بعد أن أنهى دراسته صار شخصا آخر وصارت طريقة معاملته للناس أفضل ويدرك معنى الحياة أكثر.

بعد سنة من زواجهما وضعت شهرزاد طفلها الأول وتوفيت وتوفي بعدها الطفل بأيام. كانت صدمته لفقدانهما كبيرة ولم يستطع أن يقاوم رغبته في النسيان، انكب على شرب الخمر من جديد وعاد سيء الخلق. بعد موت والده تولى أخوه الأكبر شؤون العمل وكان يبذل معه جهدا كبيرا كي يقنعه أن يلتفت إلى حياته ومستقبله، لكن دون جدوى. في إحدى الليالي التي كان عائدا فيها إلى المنزل وهو ثمل كعادته وكان يقود السيارة آنذاك وبرفقته صديق له، صدم رجلا كان يقطع الطريق ومن شدة خوفه لم يتوقف إلا بعد أن وصل إلى منطقة صناعية خالية.

في الطريق إلى هناك كان صديقه قد اتّصل بأخيه وأخبره بما حدث واستطاع هذا الأخير جعل الأمر يبدو كحادث عادي. فقد أرسل رجاله للمكان وخربوا السيارة كي تبدو وكأن فراملها قطعت وصدموها بجدار قديم وتركوا مكانه السائق مرتديا ملابس عمر حتى ينكروا أنه من كان يقود السيارة. رغم إخفاء أي دليل ضده فالرجل المصاب كان يعرف جيدا أن من صدمه هو عمر الناجي، وعلم فيما بعد أنه كان ثملا، لكن لا أحد صدقه لأن أدلة براءته كانت قوية وكل ما استطاع فعله هو أن يدعوا عليه بأن يبتلى بمرض قاتل.

كانت الحادثة كالصفعة التي أيقظت عمر من غفوته وأعادته إلى نفسه من جديد، عاد إلى استقامته السابقة وبدأ يتعلم من جديد كيف يكون إنسانا. انخرط في جمعيات خيرية وبدأ يشارك بنفسه في أنشطتها. كان يقوم بجولات للمناطق النائية ليعرف ما يحتاجونه ويقوم بتأمينه قدر المستطاع، حتى أنه بدأ يقيم في تلك المناطق أياما أو حتى أسابيع ويساعدهم في أعمالهم بنفسه. عاد إلى الكتب من جديد وبدأ يساعد أخاه في العمل محاولا ملأ حياته بما يفيده وبما ينسيه آلامه وآثامه.

لم يستطع أن ينسى نظرات ضحيته ودعائه عليه لحظة واحدة. مرت السنين وتحقق ما كان يخاف منه وأصيب بمرض سرطان المخ الذي تأكد بأنه لن ينجو منه، كان كل ما يستطيع فعله هو طلب العفو من ضحيته، الذي اشترط عليه شرطا غريبا وصعبا كي يسامحه وكان هذا هو الشرط الثاني. كان الوباء آنذاك قد بدأ في الانتشار، وكان شرط الرجل أن ينخرط عمر مع المتطوعين لمساعدة المرضى. فكر كثيرا في الأمر، لكنه وافق وأقنع والدته وأخاه بأن هذا هو ما سيريحه من عذابه. غادر عمر بيته وودّع أهله وماضيه وتوجه إلى المستشفى الخاص بمرضى الوباء، كان يعرف أنه ذهب بلا رجعة، كما كان أخوه ووالدته يدركان أنهما ربّما لن يرياه مجددا.

بعد دخوله المستشفى، تعرف على المتطوعة عاتكة عزمي التي ذكرته بزوجته المتوفاة. وجد نفسه دون أن يدرك متعلقا بها وصار يتقرب منها، في بعض الأحيان كان يضع يده على كتفها، أو يحدق بها بطريقة المحب الهائم، أو يلغي الحدود معها في أثناء المزاح حتى وجد أنه كان يعتذر إليها أكثر من عشرين مرة في اليوم. اضطرت

للابتعاد عنه وتجنبه، لكنه ما لبث أن باح لها برغبته بالبقاء بقربها وطلب منها أن لا تبتعد عنه.

اشترطت عليه أن يتزوجها إن أراد أن يبقى بقربها. خطوة مجنونة لأشخاص مهددين بموت معجل، لكن ماذا سيخسران إن تصرفا بجنون في آخر أيام حياتهما كما كانا يظنان. تردد في البدء بسبب مرضه الذي لا تعلم عنه شيئا، ولم يرغب في ربط مصيرها بمصير شخص ميت. لكنه لم يجد فرقا بين السرطان والوباء سوى أن الثاني أسرع فتكا من الأول، وما الفرق إن عرفت أم لم تعرف بمرضه فهو من المحكوم عليهم بالإعدام مثلها لدخوله هنا حتى إشعار آخر. عقد الشيخ عبد السلام قرانهما وحصل أخيرا عمر على السلام والطمأنينة اللذان كانا يبحث عنهما منذ أن ماتت زوجته وطفله. وصار بإمكانه رؤية حبيبته شهرزاد من جديد والبقاء بقربها في شخص عاتكة بفضل الشرط الثالث.

عاد من شروده في رحلة إلى ذكريات حياته وحمِد الله على الشروط التي فرضت عليه وغيرته إلى شخص يستحق أن يكون إنسانا. بينما هو كذلك إذ لمح طيفا من بعيد ينظر باتجاهه. دقق النظر إلى الطيف الذي لم يبد منه غير عينيه الغائرتين وسط ظلمة الأشجار المتطاثفة، لكنه سرعان ما اختفى خلف الأشجار. فجأة أُلقي بمنديل صغير ملفوف نحو عمر وعلق بغصن قربه. أخذه هذا الأخير وفتحه فلم يجد به شيئا غير أنه متسخ بغبار كثير. استغرب أمر هذا المنديل وألقاه من يده خوفا من أن يكون به سمّ أو ما شابه ونفض يديه من الغبار. عاد إلى القلعة وهو حائر في أمر هؤلاء الغرباء الذين يراقبونهم حينا ويقتلون منهم حينا. لكن هذا الرجل شجاع والقائد قرّر أنه سيتحدى المجهول ليحمي أصدقائه دون شرط أو قيد

هذه المرة، فقد سبق وتغير واختار طريق البذل والعطاء لأجل الآخرين.

من يصلح قائدا؟

منديل متسخ وجثث مبعثرة وقتلى من حين إلى حين، أمور لم يتمكن عمر من إغفالها وكان عليه أن يبدأ في البحث عن ماهيتها. ذلك القائد الشجاع المغامر كان يعلم أن البحث عن أجوبة يستوجب دخول الغابة من جديد. يستوجب وضع حياته في خطر من جديد، ولكنه قد قرر منذ مدة أن يكون القربانَ الذي سيقدمه المنبوذون لِكي يعيشوا بسلام. استشار أحمد في قراره هذا فقال له:

– "الوضع غير مستقر بعد هنا، ذهابك هكذا دون أن تترك من ينوب عنك سوف يفسد الأمور، فلا يحترم الناجون غيرك ولا يخشى حيدرة من شخص آخر".

كان رأي أحمد صائبا، فحتى إن لم يكن قائدا رسميا للمنبوذين فهو المسؤول عنهم، لذلك لم يجد عمر بُدًّا من ترك الأمور مستقرة قبل ذهابه. ذهب إلى الشيخ عبد السلام واستشاره في أمر ترك قائد للمنبوذين مكانه ريثما يعود فقال له:

– "لقد قبل الناس بك قائدا حتى دون إعلان الأمر، لكنهم ربما لن يستسيغوا وجود غيرك، والظروف صعبة هذه الأيام بسبب منع الطعام عن الذين لا يعملون لذلك أنصحك بأن لا تطيل الغياب، وأن لا تُثبّت النائب عنك كنائب دائم كي لا يطمع هو ويتمرد غيره، على سلطة زائفة تتحول إلى لعنة علينا وتبيدنا كما أبادت من قبلنا".

استحسن عمر رأي الشيخ الذي كان يختبر ذكائه وفطنته ويتأكد من كونه يصلح قائدا قبل أن يقوم بتزكيته عند كل من يستفسرونه عن أهليته للقيادة. فمنذ مدّة والكثيرون يتوالون على الشيخ عبد السلام ليعرفوا رأيه في عمر، لكنه لا يستطيع أن يخبرهم برأيه بصراحة. فحسب ما قال لإبراهيم عندما استفسر عن سبب عدم إبدائه لرأيه، أنه لو زكّاه قبل اختباره سوف يقوم بما يخالف نزاهته ولو قال إنّه لا يعرف سوف يلجئون إلى الشيخ عبد الهادي، والذي يتبع حيدرة ويعمل على جعل العمال يثقون بأهليته للقيادة، وبأهلية المدللين ليكونوا مستشارين ومشرفين، دون أن يخجل من إهانته للعمال الذين أسقط أهليتهم في أن يصبحوا مشرفين، وأيّد أن يصبح المدللون أسيادا دون وجه حق.

بعد تنفيذ قرار المجلس بمنع الطعام عن المدللين، لم يبق أمام هؤلاء الذين أنهكهم الجوع ولم تعد صدفيات البحر التي وجدوها سهلة المنال تكفيهم، سوى البحث عن مصدر آخر للطعام. بحثَ البعض مبتعدين عن القلعة ببضع كيلومترات عن كتل صخرية أخرى على الشاطئ، لكنهم لم يجدوا شيئا. بعد أن فشلت محاولاتهم ولم يجرؤوا على الاقتراب من الغابة، قرروا أخيرا الخضوع لقرار جيرانهم وبدؤوا يساعدون في العمل. قام بعضهم باختيار العمل الذي رآه مناسبا له، والبعض الآخر عرض خدماته على عمر والمشرفين على العمال. بعد توزيع المهام وتحول القلعة إلى خلية نحل حقيقية، غادر عمر القلعة قاصدا الجهة الشمالية على طول مشارف الغابة في رحلة استكشافية بمعية أحمد.

عُيّن مروان نائبا عنه ريثما يعود عمر، وكان أثقل ما كُلّف به منذ وصوله، فلم يعد لديه وقت لاستكشاف القلعة، ولا وقت للتقرب

من سعاد التي لم يجتمع بها بعد رغم أنه بدأ بتجهيز غرفة بالجناح الغربي الخالي لهما، إذ لم يكن يجرؤ أن يطلب من أدهم إخلاء جناحهما. رغم أن هذا الأخير لم يكن ينام إلا سويعات متفرقة بين النهار والليل، فلم يتخلص من الأرق الذي يصيبه معظم الليالي، مما جعله يتولى مهمة الإشراف على الحراسة.

بدت الأمور بادئ الأمر وكأنها ستستقر، لكنه كان الهدوء الذي يسبق العاصفة. ففي أول يوم من مغادرة عمر وأحمد وبينما كان أدهم يتفقد الحراس على الأسوار وجد نعيم نائما. أيقظه بعجل وقال له:

– "كيف تنام في نوبة حراستك؟"

– رد عليه قائلا "إنه النهار ولا شيء يلوح في الأفق فما المشكلة أن آخذ قسطا من الراحة".

– أجابه أدهم وهو مغتاظ "ذكائك هذا لن ينفعنا إن تعرضنا لهجوم ساهم فيه إهمالك، وعقابا لك سوف تقوم بالحراسة ليلا أيضا".

في المساء استغرب حيدرة غياب نعيم وتوجه إلى مكان حراسته فوجده ما يزال يعمل. علم منه حيدرة ما حدث وقال له:

– "جيد أنك لم تخالفه، لقد وجدت حلا لبدء الشنئان بين مروان وأدهم".

أمَر حيدرة نعيم أن يتمارض ليلا ويدّعي أنه مصاب بدوار ولا يغادر مكان عمله حتى يأتي مروان إليه. تمارض نعيم كما طُلب منه، وعندما علم أدهم ذهب ليتفقده وطلب منه الذهاب ليستريح ولكنه أبَى.

وصل الخبر إلى مروان عن طريق فريد وذهب من فوره إليه وطلب منه أن يعود ويرتاح وأعفاه من العمل غدا. اعترض أدهم على الأمر لأن حاله لا يتطلب إلا بعض الراحة، ولا يمكن إعفاءه من

العمل. لكن مروان أصر على قراره مما جعل أدهم يخلي مسؤوليته من مراقبة الحراس مادام لا يمتلك حرية اتخاذ الإجراءات الصارمة. وحدث ما سعى له حيدرة، ودبّ الخلاف بين الصديقين المقربين أدهم ومروان. بعد هذه الحادثة التي علم بها الجميع، كثر تهاون المدللين بالعمل خاصة بعد أن عجز مروان عن تحديد عقوبات مناسبة لمن يتهاون، وكان يرى أن العقوبات المقترحة من طرف المشرفين قاسية ولم يسمح بتنفيذها كما فعل مع نعيم.

بعد ثلاثة أيام من رحيلهما، عاد عمر وأحمد فوجدا القلعة في حالة فوضى وتحول النحل المنظم إلى دبابير مبعثرة، وصار كل يفعل ما يحلوا له ويعمل متى يحلو له. أعاد عمر تنظيم الأمور من جديد وبعد عودته لم يستطع المدللون التهاون لخوفهم منه واستقر الوضع لأيام. أما أدهم فلم يكلم مروان منذ ذلك الحين وغادر الجناح وانتقل إلى الجناح الغربي. منذ خصامهما ظل مروان حزينا فقد كان رفيقه قبل مجيئهما إلى هنا، شكا لسُعاد التي رأت تغير حاله، فأخبرته أنه عليه الاعتذار إليه لأنه أهانه أمام الجميع. لكنه تردد في فعل هذا خاصة أنه لم يقتنع بأنه المخطأ.

لم يكن التهاون وخطط حيدرة هما مشكلة خلية النحل الوحيدة، بل أيضا عدم تأقلم بعض المنبوذين مع ما كلّفوا به. مثل رويدة التي فشلت في العمل في الزراعة وصنع السلات والتنظيف وذهبت إلى السيدة رملة كي تعمل معها في المطبخ. كلفتها رملة بتقطيع السبانخ وانشغلت هي بتحضير السمك. بعد دقائق عادت رملة فوجدت رويدة قد أنهت العمل، ولكن بصورة مرعبة. كان حجم كل قطعة كبيرا بطول الإصبع ولا يصلح للطبق الذي طلبته رملة للمرضى. قررت رملة أن تعيد تقطيعها وطلبت من رويدة أن تغسل

الأطباق. لم يكن غسل الأطباق أفضل، فقد أحدثت فوضى عارمة ممّا جعل رملة تطلب منها التوقف كي لا تدمر المطبخ. جلست بعدها رويدة تبكي بعد أن أدركت أنها لا تصلح لأي عمل فواستها رملة قائلة:

– "لا بأس هذا يحدث أحيانا"،

– ردّت رويدة بعد أن توقفت عن البكاء: "إذن، لست غاضبة؟"

– أجابت بابتسامتها الحنونة "كلّنا نُحدث الفوضى في بداية تعلمنا العمل".

– ردت رويدة باستغراب "وكيف عرفت أنّي لم أطبخ من قبل؟"

– أجابت "هذا واضح يا ابنتي"

– قالت رويدة بعد أن تنهدت من أعماقها "لقد كنت فتاة غنية جدا لدرجة أنّي لا أكاد أذكر كم سيارة امتلكت وغيرت طوال حياتي، وكم دولة زُرت في أيام عطلي، لطالما كنت أنيقة ومهندمة ولا أحد يقدر على مجاراتي"

– قالت السيدة رملة "هذا جيد لا شيء تندمين عليه فقد استمتعت بحياتك"

– ردّت عليها قائلة "لكني كنت فظة وزاد من فظاظتي معرفتي برأي الناس بي، مجرد فتاة بشعة لا تستحق الثروة التي لديها، كنت أعامل الجميع بفظاظة حتى لا أرى بشاعة وجهي في أعينهم. مما جعل الناس يتهربون منّي والذين بقوا بجانبي كان لأجل مصلحتهم، كنت أحس أني وحيدة، مكروهة ومنبوذة".

– قالت رملة "حسنا وأنتِ الآن بإمكانك أن تصيري محبوبة، إن تعلمت كيف تعيشين مع الناس، ابحثي عن شيء تحبينه واعملي فيه وستجدين حولك من لن يرى شكلك بل جمال روحك".

– تبدد حزن رويدة وقالت بحيوية "أنا ما أزال أنيقة وأرتدي ملابس تساوي الكثير في عصرنا هذا لأنها من التاريخ".
ختمت السيدتين الجلسة بضحك جعل فيروز الفضولية التي دخلت المطبخ لتوّها تجنّ كي تعرف الحوار بتفاصيله. وهكذا نجح عمر في ضم الكثير من المدللين كرويدة برضاهم وجعلهم يتأقلمون مع حياتهم الجديدة.

بعد استقرار الأوضاع، قرر عمر أن يترك أدهم هذه المرة ينوب عنه ويرحل من جديد. تولى أدهم زمام الأمور وبدأ يحدد عقوبات للمدللين المقصّرين في أعمالهم. بدا الوضع مستقرا في البداية، فحزم وصرامة أدهم كانا يخيفان الجميع، لكن الاستقرار ما لبث أن انتهى. فذات يوم كان عكرمة البالي، أحد أتباع عنتر، يساعد طاهر وبعض الصيادين في البحر.

كانت مسؤولية فرد الشبكة تقع على عاتقه، بينما يقوم الآخران بالاهتمام بالحفاظ على توازن القارب. كان هذا أول قارب يستطيعون صنعه ويستطيع حمل ثلاثة أشخاص فقط.

حين رفعوا الشباك لاستخراج حظهم من الأسماك وجدوا أنها متشابكة، وعرفوا أنه لم يحرص على فكّها ولم تمسك بأية سمكة. بعد أن عادوا إلى اليابسة سردوا على الباقين ما جرى، لكنه رفض الاعتراف بخطئه ورد عليهم قائلا:
– "لقد فردتها جيدا لماذا تريدون مني الاعتراف بخطأ لم أقم به لن أعمل معكم ثانية" وانصرف غير عابئ بما سببه.

كان على باقي الصيادين إيقاف العمل على صنع القارب الآخر والذهاب إلى الصيد لاستدراك اليوم. أما عكرمة فقد كان غير مبال بالمشكلة التي سببها ولم يساعد في حلّها، بل وذهب مغتاظا إلى

حيدرة، ليحكي له ما حدث وكيف ظُلم وتمّ لومه على ذنب لم يرتكبه. طلب منه حيدرة الاستمرار في التذمر من معاملتهم السيئة وسرْد ما حدث على الباقين على سبيل أنّه ظلم تعرض له. أمر أدهم عندما سمع بما حدث بجعله يعمل في تنظيف ملابس الصيادين وحمل طعامهم طوال اليوم ولا يحصل على طعامه إلا بعد أن ينهي يومه لأنهم ضاعفوا العمل بسببه.

بينما هو ينفذ أمره ويخدم على مضض الباقين، تعثر أحد الصيادين الذي كان يحمل سلّة فوقع وانقلبت السلة رأسا على عقب حتى عادت بعد الأسماك أدراجها مع الأمواج. أخبر عكرمة حيدرة بما حدث مع الصياد وأن أدهم لم يؤنبه أو يعاقبه فاستغل حيدرة هذا الأمر جيدا. طالب حيدرة أدهمَ بمعاقبته، لكنه رفض لأنه لم يكن خطأه فقد تعثر رغما عنه، كما أنه يعمل بجد ويصيد الكثير. لم يفلح حيدرة في إحداث مشكلة لأدهم فقد كانت حجّته قوية. لكن موقفا آخر حدث ساعده على إكمال خطته.

فقد عاقب أدهم أحد المدللين لأنه كسر أحد ألواح القارب الذي يصنعونه بينما يثبتها مكانها. اعترض حيدرة لأنه أيضا لم يقصد هذا الأمر مثله مثل الصياد ووافقه الكثيرون، ولم يجد العمال شيئا يدافعون به عنه. بدأت الشكاوى تكثر وتتراكم على رأس الشيخين وعاتكة ومروان من ظلم أدهم. تدخّل الشيخ عبد الهادي وأصرّ على أدهم بإلغاء العقوبة واضطر للانصياع له. بعد أن تمّ الأمر علم المدللون أنهم لن يعاقبوا على أي خطأ يرتكبونه وكثر إهمالهم في العمل. تهاون المدللين جعل العمال يتجملون العبء عنهم وكثرت الحوادث التي عليهم إصلاحها.

من بين تلك الحوادث، ما فعلته غالية التي كانت تساعد عاتكة وأسماء في المشتل، الذي شيدوه قرب الزريبة، التي صارت مخزنا للمؤن النباتية المجففة. كان مشتلا صغيرا فكرت المرأتان في جعله أكبر بعد نجاح أول نباتاتهما في النمو، لذلك كانتا تحتاجان لمن يعتني بالزرع بينما تنشغلان في جلب التراب من محيط القلعة لتوسعته. انشغلت عاتكة به عن الحقل منذ انتقال عدي إلى العمل هناك، تجنبا للاحتكاك به، واختبأت وراءه ووراء باقي أعباءها من كابوس يقظتها ذاك. لكن منذ انضمام غالية إليهم بدأت تتراجع البراعم الصغيرة وتحترق النباتات التي كانت في طور النمو بحرارة الشمس. لم تفهما ما حدث لأنها أكدت لهما أنها تقوم بسقي الزرع في وقته. ذات يوم، عادت عاتكة وأسماء من جولة تفقدية في حدود الغابة. فور دخولهما القلعة، وجدتا غالية تغرف من الماء المالح وتهمّ بسقي النباتات به. قامتا بإيقافها وقالت لها أسماء:

– "هذا الماء مالح لا يصلح لسقي هذه النباتات، سبق وأخبرناك بهذا"

– أضافت عاتكة "إن كنت قد استعملته طوال هذه المدة فقد ضاع عملنا هباء".

– ردّت عليهما بغضب وقالت "أنا لا يمكنني أن أستخرج الماء من البئر كل صباح ومساء فالدلو ثقيل، بالإضافة إلى أنّي لست مسئولة عن فشلكم في الزراعة وجهلكم، ابحثوا عن الخطأ الذي ارتكبتموه وتسبب باحتراق النباتات ولا تلقوا باللوم علي".

– ردّت أسماء عليها قائلة " لو أخبرتنا لتكفّلنا نحن بإحضار الماء ولطلبنا من غيرك مساعدتنا وأعفيناك من هذه المهمة الشاقة عليك"

– فردت بدورها قائلة "أنا لست خادمة لديكم حتى تقوموا بتغييري متى شئتم"

– ونظرت نحو عاتكة وقالت "غيري من اعتاد الخدمة ... والآن يريد من يخدمه"

– ثم نظرت إليهما بازدراء وقالت " ثم أخبراني، متى عينّاكم حكاما علينا أو سادة لنا؟".

انصرفت بعدها مباشرة تاركة المرأتين مذهولتين مما قالت، وتفكران في كم العمل الذي عليهما القيام به لإنقاذ المشتل بعد أن صار التراب مشبعا بالملح. استمرت أخطاء الكثير من المدللين وصار على أدهم، الذي مرّت أيام على توليه زمام الأمور، أن يعوض أخطاء المدللين بالضغط على الباقين كي يتداركوا الخسائر وصار الحمل ثقيلا عليهم.

عاد عمر ليجد العمّال يشتكون من كثرة العمل، فمع حزم أدهم وتوقف المدللين عن العمل صار الحمل عليهم كبيرا. كان أول الذين تعبوا أدهم نفسه، الذي تحمل مسئولية الحراسة ليلا واستمر في عمله بالنهار. عاد عمر من جديد وبدأت تعود الأمور إلى سابق عهدها بعد يوم من عودته، واستقرت الأحوال، وسكنَ حيدرة إلى أن يجد خطة أخرى. لكن حتى مع وجود عمر لم تنته المشاكل. فبعد أيام، تعب الحراس من تذمر المدللين وكثرة حججهم كي يتهربوا من العمل وصار على عمر، الذي تحمّل مسؤولية الحراسة وقتا أطول مع أحمد أن يجد حلّا. قرر بعد أن اجتمع بأدهم وأحمد ومروان وطاهر والشيخ وعاتكة جعل العمّال يحرسون يوما والآخرين يوما، حتى لا يبقى الحمل مُلقى على فئة دون الأخرى. وهكذا طُبق هذا على

معظم الأعمال وصار على المدللين العمل جيدا عندما يحين دورهم إن أرادوا أن يحتفظوا بوجباتهم كاملة وإثبات أهليتهم لقيادة القلعة.

بعدها غادر عمر من جديد القلعة برفقة أحمد، وعُيّن طاهر مكانه في هذه المرة. تولّى طاهر مسئولية قيادة الصيادين كعادته بالإضافة إلى تنظيم جلب الماء من البحر، ومراقبة الصناع بينما كلّف عاتكة بأمور الزراعة بمساعدة ليلى، وكلّف السيدة رملة بشؤون القلعة الداخلية، ومروان بالحراسة على الأسوار، وأدهم بحراسة الشاطئ، ومُؤنِس بحراسة الحقل بمساعدة عامر صاحب الخال وحيدرة بحراسة مشارف الغابة عند سفح الجبل. عادت عاتكة إلى العمل في الحقل صباحا بعد أن انتقل عدي إلى العمل مكان طاهر في الشاطئ في الصباح. سار العمل بشكل جيد ولم يتدخل طاهر في أي من قرارات المشرفين الذين عينهم حتى وإن خالفت رغبته. كان همّه الحفاظ على وتيرة العمل كما خطط لها، كي لا يدركهم الخريف والشتاء وهم لم يجهّزوا المؤونة الكافية. كان العمل على أشدّه وصار أشبه بمنافسة بين مختلف الورش والمشرفين، وتسارعت وتيرته تدريجيا مما منح المنبوذين وقتا للقيام بأشياء أخرى كالتدريب على القتال. ومنحَ فيروز الفضولية وقتا أطول كي تستجوب أعضاء المجلس عن المكان الذي يقصده عمر وأحمد وعن نتيجة رحلاتهما. لكن لا أحد منهم كان يعلم شيئا فقد فضل عمر الاحتفاظ بتقرير الرحلات حتى تنتهي. توجست عاتكة خيفة من تصرفه فهذا يعني أنهم وجدوا ما هو أكثر خطورة ممّا يواجهونه هنا وازداد خوفها عليه. لكنَّ مَن في القلعة هم من عليهم أن يخافوا، فأولئك القتلة لن يدعوهم وشأنهم إلى الأبد.

فبينما كان مُؤنِس يشرف على حراسة الحقل إذ لمح شيئا غريبا يظهر بين الأشجار. ركض نحوه متعمقا في الغابة، رأى ذلك الشيء يتحرك بالقفز من شجرة إلى شجرة، ويستعمل بعض الحبال المعلقة بالأشجار. تسلّق مُؤنِس شجرة وقرر أن يلحق به، فقد قضى معظم الأيام الغابرة في أوقات فراغه يتعلم كيفية الثبات على الأشجار والوثوب عليها. لكن ذلك الشيء كان أسرع منه بكثير، وسرعان ما غاب عن ناظريه. عاد مُؤنِس أدراجه نحو الحقل ووجد عامر وعاتكة ولبنى ينتظرون عودته متلهفين خائفين من حدوث مكروه له. قال لهم بعد أن نظر من جديد نحو الغابة:

– "إنه إنسان، لم يكن حيوان ... متأكد أنه إنسان وكان يراقبنا، لكنه سريع. في المرة القادمة سأكون قد تدربت أكثر ولن يهرب مني"

– قال عامر "هل أنت جـ..جاد أخي مَّمَـمّاذا لو أوقَّعك ففي فخ"

– أجابه قائلا "لطالما تعاملت مع الفخاخ ومع الماكرين، لا تخشى علي".

– قالت عاتكة "هذه القلعة لم تكن يوما آمنة"

– قال مُؤنِس "إنهم شعب منظم وليسوا قتلة همجا، يجب أن نكون حذرين ومستعدين، ابدؤوا بالتدريب، فنحن بحكم عملنا هنا أقربُ إلى الخطر، علينا أن نتدرب على القتال".

بدأ فعلا هؤلاء الأربعة بالتدرب على القتال وخصّصوا ساعتين بعد العمل، وقرر البعض ممن يعملون نفس ساعاتهم الانضمام إليهم، وكان أوَّلَ تدريب على قتال يقوم به المنبوذون بعد محاولات أحمد ومروان السابقة.

في إحدى الليالي التي كان على المدللين أن يحرسوا فيها، نسي أحدهم الباب مفتوحا. دخل ضبع متوحش إلى هناك تابعا أقرب

رائحة طعام وكانت لأحد المقعدين، الذي نسي زميله في السكن الباب مفتوحا. دخل عليه الضبع دافعا الباب وانقض على ساقه مما جعله يستيقظ ويصرخ بقوة، موقظا النائمين ومنبها المستيقظين الذين كانوا يستعدون لصلاة الفجر. هرع إليه الشيخ عبد السلام وطاهر ومروان وأدهم ومُؤنِس أولا، فرأوا الضبع يركض هاربا من الجلبة التي أُثيرت في المكان وخرج من حيث دخل. أثارت هذه الحادثة غضب العمال لإهمال الباقين في الحراسة وتولى سكان الجهة اليسرى مسؤولية القيام معظم الاعمال من جديد ولم يعد العمل مقسّما كما حدد عمر. تكفّل معظم المدللين بجلب الماء من البحر واستخراج العذب من البئر، وأيضا مساعدة الصيادين في نقل السمك. تم إعفائهم من تحمل أية مسؤولية في مكان حيوي.

تذمّر حيدرة وأتباعه من طريقة قيادة طاهر للقلعة فقد أصبح لنفس الخطأ عقوبات مختلفة حسب المشرف، حيث كثُرت العقوبات لكثرة الأخطاء التي صار الكثيرون يتعمدونها بإيعاز من حيدرة.

توقف كل أتباع حيدرة عن العمل حتى يتقرر توحيد العقوبات، ولا يختلف شخص عن الآخر، وألقي العمل كله من جديد على عاتق باقي العمال. عاد عُمر بعد ثلاثة أيام ليجد الأمور قد تعقدت من جديد وأعاد كل شيء لما كان عليه. واستقر أكثر من أسبوع هذه المرة. تأكد أنه من الصعب أن يعتمد كليا على أحد أصدقائه لينوب عنه، وفكّر بتأجيل رحلاته هو وأحمد بعض الشيء حتى يجد حلّا، فكما قال الشيخ عبد السلام له:

– "سكان القلعة كقنبلة موقوتة وشخصان يمسكان زمامها أنت وحيدرة وأنصحك أن لا تتركها له كي لا يفجّرها في وجه الأبرياء".

ارتاح بال عاتكة عندما علمت أن زوجها لن يتركها ويرحل من جديد، ويحرِمها حتى من أن تكون ظلّا لامرأة أخرى، مرغوبٌ فيها روحا ومنبوذة جسدا، بينما نابذها يغامر بحياته لأجل أن يستقر الباقون، اللذين لا يدرون أنهم باختيارهم عمر قائدا واعتمادهم عليه وعدم قدرتهم على تحمل المسئولية، حرموه الرّاحةَ في أيامه الأخيرة، وحرموا عاتكة السعادةَ في أيامها معه. وحار عمر بين الباقين من العمال، من سيختار منهم هذه المرة، من منهم يصلح أن يكون قائدا؟

مجتمعان في القلعة

"لا بأس إن ضاعت أيامي في اجترار ذكراها، لا بأس إن انقضت ساعاتي وأنا أحاول نسيانها، لا بأس إن انفطر قلبي من فراقها، لا بأس إن استمر عذابي باستمرار رؤياها، أراها في كل وردة وزهرة وعصفور وكل ما يوحي ببهائها وشذاها، وأعود لأقول ليتها ترحل عنّي وليتني أنساها، وليت روحي لا تهيم في بحر هواها".

أنهى أحمد مناجاته ومواساته لقلبه العليل بهذه الكلمات، بينما يحاول أن يحظى بلحظات راحة وهدوء في غرفته قبل أن يستأنف العمل في المساء. حاول أن يصفي ذهنه ويتخلّص من التفكير في حبيبته التي تلاحقه وتسيطر على كثير من لحظاته خلوته وصفوه، لكن دون جدوى. نهض من فراشه واتجه نحو الباب وحاول مغادرة هذا الجحيم والبحث عن ما يلهيه عن التفكير فيها. لكنه تراجع خوفا من أن لا يجد غايته، وبدلا منها يجد الورود والزهور والعصافير ويراها من جديد بصورة أوضح. نظر حوله وحدق في أثاث الغرفة. استخرج مكنسة من خزانة قرب الباب، توجه نحو السرير وحرّكه، لأول مرة منذ وصل إلى هذه الأرض، وبدأ بالتنظيف تحته.

لم يكن رفعُ المرتبة الثقيلة سهلا، لكن معاناته في رفعها ألهته للحظات عن معاناة التفكير في زائرة أحلامه. وبدأ ينشغل عنها أخيرا كما يحدث معه كلما استأنف العمل. بعد دقائق انتهى من التنظيف

تحت السرير، وتنفس الصعداء وشَعر براحة غريبة وصفاء ذهن لا يحس به إلا عندما يكون منشغلا في العمل أو في قراءة المخطوطات والتي يعتبرها هواية أكثر من واجب.

ما يزال العصر بعيدا ولن يصل وقت استلامه عمله قبل ذلك الموعد. لذلك لم يجد بُدّا من أن يكمل ما بدأه كي يحظى بأوقات سكون أطول. بدأ ينظف خلف وتحت كل قطعة أثاث بالغرفة حتى وصل إلى أكبر قطعة وهي الدولاب. بدأ يُخليه من الأواني والكتب وأغراض أخرى حتى يخف وزنه. وما إن انتهى من آخر غرض حتى أذّن العصر مبشرا بحلول وقت الصلاة ووقت عمله. غادر الغرفة مرتاح البال والخاطر، لا يكاد يحس إلا ببعض الحنين إلى ذكريات حقيقية، عاشها مع أناس حقيقيين رحلوا عن الحياة وتركوه غارقا في حزنه يسلي نفسه بأحلام يقظته.

لم يكن ينسى حنينه إليهم إلا عندما يخرج إلى عالم الأحياء المنبوذين مبتعدا عن خلوته مع ذكريات سراب وذكريات من رحلوا. ويواجه الواقع الذي أمامه بعد أن ترك له عمر مهمة إدارة القلعة.

فمنذ عودة هذا الاخير في المرة السابقة قبل أيام هدأت القلعة وقلت المشاحنات والمشادات واستقر الكثيرون في مهامهم كرويدة، التي توجهت إلى السيدة ريحان لتساعدها في الخياطة بعدما أدركت أن أكثر شيء تجيده وتحبه هو الموضة وبدأت الدروس. لكن رويدة كانت من القلة الذين استوعبوا صرامة العمال واستطاعوا التأقلم معهم، أما معظم المدللين فقد اغتاظوا من هذه المعاملة التي بدأت تبدُو لهم أنها ظالمة ومذلّة، وتعبوا من كثرة العمل الذي يقومون به، والذي يعد نصف ما كُلّف به الباقون. فقد استولت عليهم أفكار حيدرة الذي

استغل الفرصة لإقناعهم بأن يؤسسوا مجتمعا منظما يكون فيه من يتكلم باسمهم ويدافع عنهم ويطالب بحقوقهم.

بنفس الأنانية والانتهازية التي كانت فيهم منذ أن استغلوا انشغال الجميع حين دخلوا القلعة أول مرة، واختاروا الأماكن الأفضل في القلعة دون أن ينتظروا التوزيع العادل. وأيضا تجلّت بوضوح عندما بدؤوا يستغلون جيرانهم ليمدوهم بكل ما يحتاجونه دون أن يبذلوا أي مجهود لمساعدتهم.

اختاروا حيدرة كممثل لهم دون تردد وصاروا مجتمعا داخل مجتمع، جعلهم يتمردون من حين إلى حين على العمل ويشتكون من معاملة العمال لهم. صار يضع لهم خططا يجعل العمال أو المشرفين يبدون ظالمين ومتسلطين. كالخطة التي قام بها فريد ذات يوم بينما كان يعمل مع الصيادين على إحدى القوارب، لمس كتف أحدهم ووقع في الماء وتصنّع أنه مغمى عليه من شدة الخوف. بعد أن أخرجوه اتهمه بأنه دفعه متعمدا.

أما غالية فبعد أن انتهى العمل في الحقل ذات يوم تأخرت عن الجمع دون أن ينتبه لها أحد، ودخلت القلعة بعد وصولهم بساعة حافية القدمين وقد اتّخست ملابسها وتمزقت وأخبرتهم أنها تعرضت إلى هجوم ضبع. اتّهمت عاتكة والباقين بعدم إعلامها بانتهاء العمل، وتركها في مكان بعيد عنهم يمنعها من سماع إعلانهم. قام حيدرة بلوم عامر وعاتكة على عدم تفقد من يرافقهما من العمال. إلا أن هذا الأخير نسي أن عاتكة لا تكون مسئولة عن الحقل في المساء، بل تعمل في العيادة وفي المشتل وجمع الأعشاب، وظهر تعمّده اتهامها. لكن خطط حيدرة وباقي دواهي المدللين توالت. كثرت احتجاجاتهم وتذمرهم من سوء المعاملة.

وصار على سكان الجهة الأخرى الانصياع لطلباتهم كي يتجنبوا المشاكل والفوضى التي يثيروها المدللون، فلم يكن لديهم وقت للتعامل معها وسط كمّ الأعمال المتراكمة عليهم والشتاء آخذ بالاقتراب.

تزايدت مطالب المدللين ومشاكلهم شيئا فشيئا، وبدأ العمال يحاولون تجنب إثارة أية مشكلة مع أي منهم. كان المدللون متحدين فيما بينهم ويدافعون عن أي شخص منهم حتى وإن كان على خطأ، حسب خطط حيدرة وتوجيهاته، وساهمت كثرة عددهم في استفحال هذا الوضع. في النهاية نجحت جزئيا الخطط في تحقيق المبتغى من ورائها، وبدؤوا يعملون وقتما يريدون ويفعلون ما يريدون دون أن يتجرأ أحد على توجيه اللّوم إليهم حتى وإن أخطئوا في شيء أو أفسدوا شيئا. وبدؤوا بالمطالبة بأوقات راحة صارت تدريجيا أكثر من أوقات العمل الذي، كانت في حد ذاتها راحة لهم.

بدأ الوضع يؤول للأسوأ بالنسبة إلى العمال الذين صاروا يحسون أنهم تحولوا إلى خدم عند الآخرين، ودون مقابل وازدادت مسؤولياتهم. أخذوا يفكّرون جدّيا في خلق مجتمع منظّم يستطيعُ الوقوف أمام تحكمات المدللين، فتقرر انتخاب مجلس من المستشارين يقوده عمر وينوب عنه على التوالي أحمد، مروان، أدهم، الشيخ عبد السلام، طاهر، أكرم، عاتكة، أسماء، ولبني الذين كانوا يشكلون أعضاء المجلس. وهكذا استقر وضع العمال وعادت الأمور إلى نصابها وتساوى الجميع في كم العمل ووقته كل حسب سنه وقدرته.

بعدها استطاع عمر أن يرحل ويترك أحمد حيث لم يكن يستطيع أن يُغفل ما وجده هو وأحمد في أثناء رحلاتهما، وكان يحتاج أن يريه

لطاهر الذي اصطحبه معه تاركا أحمد يتحمل مسؤولية حاول تجنبها طويلا.

استطاع أحمد ضمان استقرار القلعة، وبدؤوا يضعون نظاما يحكم العمال في جميع ميادين العمل ويطبق على الجميع دون استثناء، عمّالا ومدلّلين. فرض على كل سكان القلعة أن يستيقظوا مبكرا ويقفوا في الساحة حتى يتم توزيع مهامهم وإعطاءهم الإذن بالعمل. رغم محاولات حيدرة بالاستمرار في سياسة التذمر التي نهجها وباقي المدللين، إلا أن أحمد كانت حججه قوية وقراراته حاسمة لا رجعة فيها، وقوانينه تطبق على الجميع دون تمييز بدءا منه. بدأت الأمور تستقر من جديد والعدل في توزيع المهام والعقوبات ساهم في إغلاق فم أي احتجاج. عادت أيام العمل مقابل الطعام للمدللين الذين اعتادوا الدّلال. دوّن أحمد معظم الأخطاء التي يقوم بها العمال، سواء أكانت عمدا أم سهوا، وحُددت العقوبات والإجراءات حسب نوع وأهمية كل خطأ. تم توزيعها على المشرفين وكان يعدها باستشارة المجلس كلما اقتضى الأمر. صار نص القوانين التي وضعها لتنظيم العمل أول قانون يعمل به المنبوذون على هذه الأرض. بعد أيام لم يعد يحاول حيدرة إثارة أية مشكلة مع أحمد أو غيره، واطمأنّ المدللون أنه سوف ينفذ ما وعدهم به في وقت لاحق. استمر تابعاه في الإلحاح عليه لإخبارهم عن سبب تراجعه فقال لهما:

– "الشّتاء قد اقترب، والمئونة الموجودة لن تكفينا، ونحن لا نعلم نوع الشتاء هنا، يجب أن يستمر العمل دون مشاكل حتى نضمن قوت شتاءنا وبعدها سوف نستأنف الخطط".

فهذا الطامع في السلطة كان أعقل من أن يعرقل توفير سبل العيش في القلعة ولو لأجل السيطرة.

خلال هذه الأيام أحسّ أحمد بالراحة فقد قلّت وتيرة أحلام اليقظة التي يراها، وتنفس الصعداء أخيرا. لكنه بعد أن نظّم الأمور وحظي بوقت للراحة عادت إليه الأحلام من جديد، لذلك هرب منها اليوم بتنظيف الغرفة ورفع الأثاث وأتم عمله ذلك المساء، بعد تلك المناجاة، بقلب مرتاح ومطمئن.

في الليل، عاد متعبا من العمل وكلّه أمل أن يحظى بساعتين من النوم قبل أن يعود لاستلام أعبائه الثقيلة على كاهله.

أغفل الأواني الموزعة هنا وهناك حتى حين آخر، ولكن طيف حبيبته زاره من جديد وقال له دون حتى أن تدير وجهها نحوه "لم أعهدك تدع عملا دون أن تكمله". نهض من فوره بعد أن تنبه إلى الخطأ الذي كاد يرتكبه، فهذه العادة لطالما تجنبها في عمله. أشعل الشمعدان وأزاح الدولاب من مكانه كي يستطيع أن ينظف خلفه، وإذ به يرى شيئا غريبا. رفٌّ بداخل الجدار طوله متر وعرضه نصف متر، وبه كيس من الحرير مغلق بإحكام. فتح الكيس فوجد فيه ما يذهل العقول، مجموعة من اللّوحات مرسومة بالألوان. تعذر عليه رؤية ما رُسم بوضوح، أو ربما تعذر عليه تصديقُ ما فهمه منها، فأعاد الرسوم إلى مكانها والدولاب إلى وضعه وعاد إلى النوم ما بقي من وقت راحته. استأنف عمله بعد أن أيقظه مروان بعد انقضاء وقت راحته، دون أن يتوقف عن التفكير في الرسوم ودون أن يخبر أحدا بها.

بعد أن أشرقت الشمس، وصار بإمكان الضوء أن يزور غرفته عاد إليها ليستبين حقيقة الأوراق. فإذ به يذهل لما رأى فيها رغم قِدمها. فقد رسمت عليها طائرة وقربها خمسة أشخاص يرتدون ملابس عصرية، والسادس رجل عجوز يرتدي ملابس كالتي في القلعة، ويحمل

عكازا ولا يظهر إلا في صورة واحدة دون أن يبدو وجهه بوضوح. تفقد أحمد تلك الرسوم والطائرة التي تحط على سهول معشبة دون أن تظهر عجلاتها، والربانان وثلاثة أشخاص يرتدون بِذلا عصرية أنيقة. وفي إحدى الصور، يظهر هؤلاء الأشخاص وهم يتسامرون ليلا على ضوء موقد أشعلوه بالأعواد.

أمّا في الصورة الأخيرة فيظهر الشيخ وهو ينظر إلى هؤلاء الخمسة وهم معلّقون بذيل الطائرة وتسيل دمائهم من حناجرهم. كانت هذه الصورة الأخيرة مرعبة، وخلفها كتبت جمل بخط جميل ومنظم. وما إن شرع في قراءتها حتى سمع صوتا قويا يصمّ الآذان ويرعب القلوب، تلاهُ صوت يشبه صوت انهيار جدار ما.

أعاد أحمد الأوراق مكانها بسرعة، وركض مهرولا نحو الخارج ليعرف ما يجري وهو يتوجس خيفة من حدوث مكروه لشخص ما في الوقت الذي صار مسئولا عن كل فرد في هذين المجتمعين المنفصلين في نفس المكان، وفي نفس القلعة.

جوّا وبحرا وبرّا

كان الصوت قويّا، جعل سكان القلعة يحسّون أن الأرض اهتزت من تحت أرجلهم، وأن أذانهم تكاد تُصم. أما الصوت الثاني الذي سمعه أحمد فقد كان صوت انهيار جزء من الجدار الشرقي.

لم يكن جزءا كبيرا، ولم يصب أحد حتى الحارس الذي كان بقربه، لكن الانهيار والصوت المرعب كانا كفيلين بإخافة ياقوت وفلّة المرأتين الحوامل. لم يكن وضع ياقوت جيدا فقد اضطرت إلى ملازمة الفراش منذ أن وصلت القلعة، ولم تكن تقوم بمجهود كبير كما نصحتها نسرين وأسماء، كي لا تلد قبل أوانها.

لكن الممرضة والصيدلية لم يحسبا حسابا لهذا الحادث، الذي زاد من سوء وضعها حتى أن فلّة ذهلت عن خوفها بعد أن رأت ياقوت وهي تتألم بشدة وتقول لها:

– "إنّي ألد ... إنّي ألد".

ولادة لطالما كانوا متوجسين من حدوثها في زمن اعتمد فيه الناس على التكنولوجيا، حتى أن صحتهم صارت لا تتناسب مع حياة بدائية كهذه. وبينما معظم سكان القلعة كانوا خارج غرفهم يبحثون عن مصدر وماهية هذا الصوت أو خوفا من انهيار الأسقف فوق رؤوسهم، خرجت فلّة إلى نسرين وأسماء لتطلب منهم المساعدة.

وجدت هاتين الممرضتين نفسيهما في وضع صعب، فبدون مستشفى مجهز وشخص مختص كيف ستلد هاتان المرأة بأمان.

لكن ياقوت لم تكن همّ سكان القلعة الوحيد، بل البحث عن مصدر الصوت الذي يمكن أن يكون انفجارا قد أودى بحياة الكثيرين. فبعد أن تفقد مروان وأحمد الوضع وعلما أن الكل بأمان غادرا القلعة مع بعض الرجال. أوصى أحمد الجميع بعدم الخروج منها حتى يستبين ماهية هذا الصوت.

أبقى الدكتور هارون وسعاد وباقي الحراس الجميعَ بعيدين عن الأسوار خوفا من حدوث انهيار آخر. أما أسماء فقد كانت ترتعد وهي ترى ياقوت تتألم بشدة ولم تعلم ما عليها فعله، بعكس نسرين التي كانت هادئة وبدأت تتصرف كأنها مولدة ماهرة.

سُمع دوي الاصطدام والانهيار على بعد أميال، ولكن الذين كانوا على الشاطئ كان لديهم أمر أهم من صوت الاصطدام. فقبل سماع الصوت بلحظات كانوا يركضون ويهرولوا سلفا مبتعدين قدر الإمكان عن البحر، الذي جاد عليهم بإحدى موجاته الكبيرة، والتي بدت لهم أنها ستجرف الشاطئ كلّه معها.

عمَّت الفوضى بينما موجة المد تتقدم بكل ثقة وثبات. رعب كبير أصاب المنبوذين على الشاطئ، ولكنه لا يقل عن الرعب الذي عاشه عمّال الحقل. الذين كانوا أول من عرف بالاصطدام حتى قبل حدوثه. فقبل الاصطدام بدقائق، بينما مُؤنِس وعاتكة وليلى وباقي العمال منهمكون في إتمام توسيع الحقل، وفرحون بقرب حصولهم على أول براعم ما زرعوا، سمعوا صوتا قويا مألوفا قادما من الغابة ويرتفع دويّه شيئا فشيئا. رفعوا رؤوسهم وإذ بهم يرون مروحية كالتي أحضرتهم والتي باتوا يعتبرونها تابوتا للمنبوذين.

جهّز هؤلاء الثلة أنفسهم ليحضروا حفل إعدام جماعي لدفعة أخرى، وكلّهم أمل أن تستمر الطائرة في التحليق على الأقل حتى تبلغ الشاطئ، أملا في نجاة بعض الموبوئين. لكن سرعان ما رأوا ما جعل قلوبهم تهتز من أماكنها، وأوصالهم ترتعش، وهم يرمون ما في أيديهم ويحدقون ليتأكدوا من أن ما يرونه حقيقي. فالطائرة مشتعلة وقد بدا واضحا أنها فقدت توازنها ويمكن أن تسقط في أية لحظة وفي أي مكان. صرخ مُؤنِس وعامر منادين الباقين، الذين تاهت الأفكار بهم قائلا:

– "نحو الغابة بسرعة .... لنبتعد عن مسارها".

بدأ كل من كان بالحقل والبالغ عددهم عشرة أشخاص يركضون مبتعدين نحو الغابة يتمنّون أن لا تقع الطائرة فوق رؤوسهم. بعد أن تأكدوا أنها تجاوزتهم توقفوا عن الركض، استداروا ليروا مصير الآلة التي صارت خردة قاتلة ومدمرة. لم تعد عاتكة تعرف إنْ كان عليها أن تحمد الله لأن الطائرة بدأت تتجاوز الحقل، الذي يشكل مصدرا مهمّا لرزقهم، أو ترثي لحال مَن على الطائرة وهي تتوجه مباشرة نحو الجبل الصغير الذي يفصل الحقل عن القلعة.

لكنّ شيئا آخر حدث جعلها والباقين يتسمّرون أماكنهم وهم يحسون بأن الأرض سُحبت من تحت أرجلهم وقد صاروا يقفون على هاوية، فمؤخرة الطائرة انفصلت فجأة عنها واتخذت طريقها نزولا نحو الحقل، أمّا الطائرة فقد مالت مباشرة نحو الجبل واصطدمت به.

مع سقوط المحرك المشتعل على الحقل بات مصدر رزقهم أيضا مهددا بالفناء مثله مثل ركّاب الطائرة التي استحالت إلى حطام مشتعل وأصدرت ذلك الذوي المرعب.

أمّا الشاطئ، فقد كان في حالة هيجان وكل يغني فيه على ليلاه. كان ربيع يستجم قرب الشاطئ عندما رأى الموجة ورأى جموع الناس تركض مبتعدة بينما هو حبيس مكانه. ظنّ للحظات أنه ميت لا محالة وسيكون أول ضحية لذلك الذراع البحري، فجأة وصل إليه الطفل أسامة ونبيل وساعداه على الوقوف والهرب.

لم تعرف سحر وهي تسمع تلك الجلبة ما عليها فعله وأي اتجاه تسلك، لفَّت الأرض بها وتجمدت قدماها وأيقنت بأنها ميتة. فجأة أحسّت بيد تمسك ذراعها وتركض بها مبتعدة عن البحر.

كانت يد ريحان التي لم يجد طاهر خيرا منها يوصيها على سحر قبل رحيله لكونها ترافقها معظم الوقت، فهذه الخياطة المستقبلية للمنبوذين تفرغت لمراقبة سحر بعد أن وعدها طاهر بإيجاد وسيلة لصنع الخيوط التي ستحتاجها في عملها فيما بعد.

لكنّها خلال مراقبتها لها بدأت تحس أنها الصديقة والأخت التي لطالما بحثت عنها في أيام نبذها السابقة والحالية، وصار اهتمامها بها أكبر من مجرد صفقة. ركض حيدرة وفريد بدورهما بأقصى سرعة حتى أنهما لم يكترثا لرضوة التي تسمّرت مكانها ليس خوفا بل عجزا.

فجأة أوقف حيدرة فريد، ورجعا بسرعة وحملا رضوة وسط دهشة منها ومن فريد نفسه الذي لم يتوقع أن حياة شخص ما ستهم حيدرة. لم يكن الرعب وحده المسيطر على المنبوذين، بل خيبة أمل بعضهم ببعض أيضا، كنرجس التي منّت النفس بفارس أحلام قوي وشجاع كعدي، صدمت وهي تراه قد فرّ وتركها وراءه ولم يكترث لتعثرها.

استطاعت أن تنهض وتهرب في الوقت المناسب، وعلمت منذ ذلك اليوم حقيقة هذا المخادع الكذّاب الذي سبق وحذرتها عاتكة منه.

أما وسط المياه فقد استطاع بسام وبعض الصيادين الغوص تحت الموجة الضخمة قبل أن تحطّمهم، ولكن اثنين من الصيادين لم يفلحا وبقيا تحت رحمتها لتصفعهما بقوة يستحيل بقاءهما على قيد الحياة بعدها.

رغم أن المحرك المشتعل اكتفى بالمرور مرور الكرام على الحقل واستقر بعيدا عن الحشائش، لكنه ترك من الحطام والنار ما يكفي لتشتعل شجرتي ليمون وتفاح وجزءا من الحقل. نفذ حوض الماء المالح الذي كانوا قد ملئوه ليستعملوه في الغسيل عوض الماء الحلو، واضطر عامر صاحب الخال ومُؤنِس كاسِرْ والباقون استعمال حوض الماء الحلو للسيطرة على ما بقي من نار قبل أن تقتل الشجرتين اللتين اشتعلتا وتأتي أيضا على الحقل. بينما انشغلت عاتكة وليلى وفيروز بالبحث عن ناجين وسط الحطام.

لكن تلك الطائرة التي سقطت بقوة هزت بها الجبال المحيطة وزعزعت أحد أسوار القلعة لم تكن لتترك ناجين بالمعنى المنشود. فقد توفي كل من كان عليها ولم يبق سوى ثلاث جرحى في حال يرثى لها.

انشغلت عاتكة بإسعاف الجرحى مع زميلتيها. ثلاثة جرحى بحروق وكسور لا تعرف لها علاجا ولا تدري إنْ كان إنقاذهم ممكنا، لكنها قررت نقلهم إلى القلعة حتى وإن ماتوا على الطريق، فهذا أفضل من بقاءهم هنا. أرسلت فيروز الفضولية لتحضر ألواحا خشبية وعددا من الرجال يحملون الجرحى بأمان عليها.

انشغلت بعدها بما ألهاها عن الحقل وعن الجرحى، انشغلت بتفقد القتلى باحثة عن أمّها من بينهم، وخائفة في نفس الوقت أن تجدها. أمّا فيروز فقد انطلقت مسرعة نحو الشاطئ في الوقت الذي كان أحمد قد وصل سفح الجبل يلهث هو ومن معه من الرجال.

أخبرتهم فيروز بما حدث بسرعة معهودة لدى الفضولية التي احترفت جمع الأخبار، فذهب أحمد مسرعا نحو الشاطئ، فقد علم بالموجة من حراس السور الغربي، بينما أرسل معها اثنين إلى الحقل ليساعدوا الباقين على إخماد النار وإنقاذ ما استطاعوا إنقاذه بعد هذه الحادثة.

لكن هول الحادثة الأخرى كان أكبر ومنظر الشاطئ الذي يلوح من بعيد يُغْني عن السؤال عن حاله. كان ما يزال كل شخص يبحث عن صديقه أو حبيبه أو قريبه، والصراخ والعويل يملئان المكان واستحال الشاطئ إلى كابوس حقيقي لكل من كان هناك. كم عدد الموتى، وكم عدد المفقودين؟ أسئلة كان على أحمد البقاء ليجد أجوبة لها وسط هذا الدمار.

عاد مروان وبعض الرجال نحو البستان حاملين الألواح التي لم تطلها الموجة أو لم تجرفها. أما أحمد فقد شرع هو وأدهم والباقون في التأكد من نجاة الجميع. وبينما هم كذلك، إذ بهم يسمعون صراخ السيدة رملة وهي تقول:

– "لقد اختفى بدر ... ولدي قد اختفى".

وقبل أن يستوعبوا ما سمعوه إذ بعبد العزيز أحد الصيادين يقول بصوت مرتفع بعد أن هرول نحوهم:

– "لا أثر لباقي الصيادين لم يخرج منهم غير اثنين".

ثلاثة مفقودين وخسائر كبيرة لم يحسب لها المنبوذون حسابا. بدأ العمل على البحث عن المفقودين واتّحد كل من كان على الشاطئ حتى حيدرة وفريد تاركين الأحقاد والأطماع جانبا. متحدّين أكبر الأخطار التي تهدد المفقودين وأهمها الطبيعة التي وجدوا أنفسهم مجبرين على التعامل معها.

أمّا عمر وطاهر فبعد أن نجيا من موجة المد هذه والتي كانت أقل حدّة استمرا في المشي ما يقارب النصف ساعة. تقدما مسافة ليست بطويلة، وتوقف عمر فجأة عند شجرة بلّوط ونظر باتجاه الشاطئ وقال:

– "حان الوقت كي تحصلوا على قبور"

– سأله طاهر الذي اعتقد أنه لم يسمعه جيدا "من تقصد، كأنك تشير إلى موتى كانوا هنا؟"

– أجاب عمر "أخيرا حصلوا على قبور لهم عوض تلك المجزرة الشاطئية التي أقيمت على شرفهم، وبدلا من أن ينتظروا فصل الشتاء بأمواجه الكبيرة".

تجمّد طاهر من الخوف ونظر إلى عمر مندهشا من الطريقة التي يتكلم بها، ثم أردف هذا الأخير قائلا، ليوقظه من دهشته:

– "صدق من قال مصائب قوم عند قوم فوائد، فهذه الموجة ربما تكون قد قتلت أشخاصا لكنها أنقذت أيضا جثثا من العراء."

صمت لبرهة ثم تابع كلامه قائلا:

– "سوف نتابع السير كي أريك ما وجدناه وأحكي لك في طريق العودة ما رأيناه، عن مجزرة الشاطئ وأوّلُ قوانين الغرباء التي عرفناها. ثم نعود أدراجنا بسرعة علّنا نجد أحبائنا ما يزالون على قيد الحياة"

– قال طاهر "الغرباء! هل هم هؤلاء القتلة؟". قال هذا وهو يلتفت يمنة ويسرة

– فاستوقفه عمر قائلا "الخطر من حولك سواء أبحثت عنه أم لا، فلا تعتقد أننا كنّا بمأمن لأننا في قلعة محصنة أو لأننا لم نعد ندخل الغابة، بل لأنّهم لا يريدون قتلنا الآن، كما قتلوا غيرنا".

– قال طاهر "قتلوا دفعات أخرى من المنبوذين؟"

– قال عمر "نحن محظوظون، ولكننا لا نعرف السبب والخطر يحوم حولنا منذ وطئنا هذه الأرض من كل صوب، برّا وبحرا وجوّا".

في الختام، إلى متى سيبقى المنبوذون أحياء وكل ما حولهم يقودهم إلى الموت. متى سيعرفون أعدائهم المجهولين؟ وهل كل هذه الأخطار التي تحيط بهم كافية لجعلهم ينسون أطماعهم وأحقادهم ويساعدون بعضهم البعض؟ أم ستزيد رغبتهم في عيش الحياة التي يرغبونها ونيل ما يتمنونه ولو على حساب غيرهم، محتجّين بحقيقة باتوا يدركونها ويخشون منها، أنّ شبح الموت ظلّ يلاحقهم في كل لحظة، وأن أيامهم معدودة على هذه الأرض المفقودة.

دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا –في محاولة منّا لتغذية شريان الثقافة– نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيّم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايينَ من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشرَ أعمالُها بينَ القرأَةِ والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.

هـذا العمـل الإبـداعي برعايـة داربسـمة للنشـر الإلكترونـي
بشـــراكة مـــع جـــروب ملتقـــى الأقـــلام المُبدعـــة...

للاطلاع على الصفحة الرسمة لداربسمة للنشر الإلكتروني على الفيسبوك، اضغط على الأيقونة.

للاطلاع على جروب ملتقى الأقلام المبدعة على الفيســـبوك، اضـــغط علـــى الأيقونـــة.

المحتويات

من السماء إلى الماء 6

هذا المكان قبرنا 14

لم يضع كل شيء 18

في انتظار الموت 27

القلعة الأثرية المهجورة 35

أين هم أهلها؟ 52

تداخل الأزمان 60

هل هؤلاء القتلة هم أهلها؟ 71

لماذا تعمدوا قتلهم؟ 87

أين نحن من هذا العالم؟ 96

حب وحنان 106

سوف أعود يوما أمي 119

انتهى عهد الدّلال 126

غيرته شروط فرضت عليه..... 136
من يصلح قائدا؟ 142
مجتمعان في القلعة 155
جوّا وبحرا وبرّا 162

نشيد المنبوذون

المنبوذون هم أناس
لا حب فيه ولا خير
ألقي بهم فهم وباء
لكن هل هم حقا بلاء

نفوا لعام بعيد
أم هذا لم يكن عنهم ببعيد
قصد ترك العالم سعيد
أم هذا قدر عنه لا محيد

هل المنبوذون لهم ماض
هل نفوا لأرض لها تاريخ
هل سيبنون حياتهم
هل سيرعون بعضهم

معروف من قديم الزمان
أم هذه الأرض بلا عنوان
أم سيقضون في هذا المكان
أم سينسون معنى الإحسان

المنبوذون هم ضحايا
هل عالمهم الجديد سيء
نارها متى أوقدت
وبالحقد قد ملئت

أم أحدهم للآخر جلاد
أم هم مَن قلوبُهم رماد
صارت جنانهم كساد
قليل منهم من نجا بالفؤاد

المنبوذون هم بشر
خلقوا كباقي البشر
قست عليهم الظروف
أم هم جعلوا الظلمة

جارت عليهم الأنام
فيهم الخير والسلام
حولت حياتهم ظلام
هي غايتهم والمرام

bassmabook
00212771814934
bassmabook@gmail.com